العاتكة: رواية

الكاتب: أحمد زكريا

تدقيق لغوي: محمد السيد غنيم

إخراج فنيّ: الباشا عبدالباسط

رقم الإيداع: 22915 / 2018

الترقيم الدولي: 3 - 075 - 835 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع **:Facebook Page**

E_mail: bentelzayat1@gmail.com

Website: www.bentelzayat.tk

رئيس مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار الزيات

المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

المَاتِكَة

حين يأخذك التشويق إلى ذروة الصعقة

الكاتِب

أحمد زكريا

دار الزيات للنشر والتوزيع
صدق حلمك يتحقق

إهداء

القائمة ستطول، والإهداء لن ينتهي..

إلى رسول الله الذي علَّمني حبَّ الوطنِ..

إلى روح أبي، وإلى دعوات أمي، وإلى زوجتي التي تحمَّلت اعتكافي منفردًا بهذه الرواية..

إلى روح الدكتور مصطفى محمود، فكلماته كانت اللبنة الأولى لفكرة هذه الرواية..

إلى أصدقائي..

وإلى كلِّ من شجعني حتى آخر حرفٍ كتبته..

إلى كل لحظة فشل، وإلى كل كلمة محبطة، شحَذَت همّتي، وهيَّجت طاقتي، ووضعت القلم بين أصابعي..

أهدي هذه الرواية.

أحمد زكريا

❋ ❋ ❋

شكر خاص

إلى الذين أرهقتهم بكثرة قراءتهم للعاتكة..

الأستاذ/ محمد السيد غنيم، م/ محمد صلاح، م/ ميلاد بيشاي،

م/ السيد محسن عوض..

إذا كنت قد أرهقتكم.. فهذه مجرد بداية.. استعدوا لما سيأتي.

❋ ❋ ❋

-1-

منتصف شهر أغسطس...

بصوته الجهور ورأسه الأصلع وجسده العاري إلا من رداء كتان تدثر به، ملفوف بنطاق حول خصره، ضرب منادي القصر بعصاته الأرض مرات ثلاث قبل أن ينادي ليعلن بعبارات ثناء ومديح عن حضورها، لكنَّ شيئًا من تلك العبارات لا يعْلَق بنفسها سوى تلك الأخيرة:

- مولاتي.. أميرة الأميرات.. الحسيبة النسيبة.. بنت الأنبياء.

بهامات طويلة وأجساد قوية فارعة وعضلات صلبة بارزة، جاهد خادمان في فتح ضلفتي باب غرفتها المطرز بالذهب والنقوش البارزة.

هنا ظهرت..

تاج ذهبي مرصع بنادر الأحجار يعتلي رأسها، تنساب من تحته أمواج شعر كستنائي يتطاير الشذا من بين خصلاته، ماسة سوداء تتوسط عقد يزداد جماله حين يلتف حول رقبتها العاجية، ثديان تكعبا في نفور فاستقل كل منهما بمحيط خاص من صدرها فلم يتماسا، خصر محصور بغير نطاق ولا إزار.

خرجت الأميرة من غرفتها..

ومن ورائها وصيفاتها.. من كل جنس ولون ينثرن الورود حولها.

وقفت الأميرة برواق تطل عليه الغرف الثلاث، غرفتها وغرفتي الملك والملكة، ينتهي طرفا الرواق بسلم عن اليمين وعن الشمال، حانت منها

التفاتة إلى يمينها ناحية الغرفتين الملكيتين قبل أن تستقبل السُلَّم على شمالها، فاليمين للملك والملكة.

استحال القصر إلى موجة من الخشوع أصابت كل أركانه، الأنفاس بالصدور محبوسة، الهمسات بالحلوق مكتومة، العيون تعلقت بالدَرَج تراقب نزولها، تنبض القلوب على إيقاع خطواتها، تطأ قلبًا في كل خطوة.

كأن من خلق الجمال قد آثرها بتسع أعشاره، البدر في الليلة الظلماء يستحي أمام نور وجهها، نزلت الأميرة بكامل أبهتها، ترفل في ثيابها الملكية، في خيلاء لا تليق إلا بها، تمشي الهوين، لا صوت لوقع قدميها على الأرض، رقيقة.. رشيقة.. كطيف عابر.

كانت وكأنها ستطير من الفرحة.

تسري بخلجاتها بحور من السعادة.. وتتراقص بداخلها أمواجها، وانعكس هذا الشعور على وجهها فلاحت في صفحته آيات السرور.. وتشبّعت قسماته بالفرح، حتى إن الناظر إلى وجهها الجميل لا يرى فيه إلا السعادة فيزداد وجهها جمالًا على جماله، وافتر ثغرها بابتسامات ضاحكة تكشف عن أسنان مرصوصة في انتظام.. بيضاء.. برّاقة.. لألاءة.

هبطت الأميرة درَجَ السُلَّمِ بتؤدة ورقة، لترى أمامها بهو القصر بأعمدته الشاهقة، وأثاثه الملكي، وجدرانه المزدانة بالتماثيل والتصاوير.

ومن مكانها تلحظ _ بعينين نجلاوين واسعتين _ تلك الحديقة الأسطورية مترامية الأطراف إلى حد البصر.. كأنها هبطت من الجنة، بأشجارها.. وأطيارها.. وأنهارها، وبركتها ذات الماء الرقراق التي تتوسطها.

تداعب خديها نسمات باردة فيسري في جسدها الانتعاش، تحمل النسمات إلى أنفها الصغير المستقيم شذا عطر فاح أريجه في الجو يملؤه بهجة، رحيق وردٍ.. ياسمين.. ريحان.. زنابق.. قرُنْفُل.

تطرب آذانها زقزقة عصافير، صفير بلابل، هدير ماء، شخشخة نسيم مع أوراق الشجر.

أصوات الطبيعة حولها كأنها سيمفونية رقيقة تعبر عن روح الكون، الكل في هرموني ساحر.. متناسق.

تود لو تفتح ذراعيها لتعانق الدنيا.. تعانق الناس.

تومئ برأسها لتحيي الموجودين بالقصر، وبسخاء توزع البسمات هنا وهناك.

تمتمت بصوت لا يكاد يسمع: "يوم ولا أجمل".

- مبارك يا سيدتي.

- هه؟!!.

باغتها ذاك الصوت، فانتشلها من حالتها التي بأحلام اليقظة أشبه، فتوقفت عن المشي، والتفتت إلى مصدره، لتجد رجلًا قد غزا الشيب رأسه، واحدَودَب ظهره، مثرمة أسنانه.. وضح ذلك جليًا خلال ابتسامته لها، فردت له ابتسامته بأحسن منها، قصير، ممسك بصينية تقديم مشروبات فارغة، يمسكها بكلتا يديه كأنه يمسك بعجلة قيادة، فبدهت بوظيفته، إنه الساعي.

"يا للحرج!.. هل كنت أحادث نفسي؟؟!!".

هنا انتبهت شيماء لحركة الناس حولها في الرواق، الرواق الذي ينتهي بالباب الرئيسي لمبنى نقابة السادة الأشراف، الباب المؤدي إلى الشارع.

"يا ربي!.. هل رآني أحد وأنا سارحة.. حالمة.. أكلم نفسي؟؟.. أي بلهاء أنا؟؟.. ما أشد حرجي"

- يبارك الله في حضرتك.

قالتها شيماء وهي مضطربة.. حَرِجة، لكنها غالبت توترها بابتسامة عصبية كانت إلى الضحك أقرب، فخرج صوتها ممزوجًا بين الاضطراب والضحك.

بدت من العجوز ضحكة قصيرة، ورد بلسان ثقيل:

- أدام الله سعادتك.

"ماذا أفعل لأتقي هذا الموقف الحَرِج؟؟".

فتحت شيماء حقيبتها المُعلّقة على كتفها، وتحسست بيدها مكان نقودها، شعرت برغبة في الكرم والجود على هذا العجوز حتى يرضى، تنظر إليه وينظر إليها، ففطن العجوز إلى مرماها، فبسط راحة يديه المعروقة ورفع باطنها إليها في إشارة أن توقفي، فزَوَت هي ما بين حاجبيها، ونظرت إليه بدهشة كأنها تقول له: "لمه لا؟.. هذه حلاوتك" لكنها امتثلت لطلبه، وتوقفت مخافة أن يشعر العجوز بالحَرَج أو الإهانة، فنظر إليها الرجل بابتسامته التي لم تغادر فمه ودعا لها بالبركة وطول العمر، وأومأ لها برأسه تحيةً لها قبل أن يوليها ظهره ويستأنف مشيه في خطوات ثقال أعياها الكِبَر.

استأنفت هي سيرها وتوجهت صوب باب الخروج مسرعةً، وأوسعت خطاها، تكاد قدماها تلامس الأرض كأنها تفر هاربة.

خرجت شيماء إلى الشارع لتستقبلها شمس أغسطس بأشعتها الملتهبة، شمس وقحة أعلنت سيطرتها على السماء، شعرت بالهواء القائظ يلهب

وجهها ففزعت إلى سيّارتها المركونة بجوار الرصيف غير بعيد عن مبنى النقابة لتتقي هذا اللهب، وتذكرت المظروف الذي بيدها فأسرعت بتحريكه أمام وجهها لتتنسم به.

دخلت سيارتها، وفتحت نوافذها طلبًا لتغيير الهواء الحار الرابض بداخلها، قبل أن تدير مكيف السيارة، وفتحت حقيبتها لتخرج هاتفها، بيد مرتعشة متحمسة من السعادة اتصلت به.

يرن..

"هيا يا حبيبي أجب!".

❋ ❋ ❋

-2-

رن جرس هاتفه، فتناوله من على مكتبه الجالس إليه، نظر إلى شاشته، وقرأ اسمها "موزّتي"، فابتسم بصفاء، وبدلًا من أن يُجيب اتصال زوجته لمس شاشة هاتفه ليجعل الهاتف صامتًا والاتصال ما زال مستمرًا.

- يوسف!.. يا باشمهندس يوسف.

وضع يوسف الهاتف على مكتبه مرة أخرى، والتفت إلى المنادي متبرمًا:

- ماذا بك يا طارق؟!!.. يوسف.. يوسف.. ماذا؟!!.. أطارت الدنيا؟!!

- لا يا أبا لسان طويل، بل أنت الذي سيطير، لتوي خرجت من مكتب سيادة الزفت.....

- مهندس جميل؟

ومن غيره؟.. بعد أن أنهى تقريعي كالعادة، طلب مني أن أناديك له، ليخبرك بأنه موافق على انصرافك اليوم مبكرًا كما طلبت، فأسْدِ لنا معروفًا وحرك ردفك الكسول وادخل له قبل أن يخرج هو إلينا بوجهه الجالب للفقر.

قام يوسف عن مكتبه، فظهر جسده المفتول بقامة طويلة وصدر عريض، خلّل أصابعه بين خصلات شعره الأشقر الناعم، ورتب هندامه قبل أن يخطو مغادرًا المكتب إلى مكتب الباشمهندس جميل.

ولم يلبث يوسف إلا وقد عاد إلى مكتبه، وعقله يراجع خطواته التي سيقوم بها فور خروجه من الشركة حتى عودته إلى شقته.

تناول هاتفه من على مكتبه، ولملم أشياءه، وودّع أصحابه، وهمّ إلى الباب ليغادر حين سمع طارق يقول بنبرة ساخرة لها معنى:

- الله يسهل لك يا سيدي.

ثم زم شفتيه وأطلق صفيرًا وهو يغمز بإحدى عينيه.

❋ ❋ ❋

-3-

12:18ظهرًا

يئست شيماء من أن يجيب اتصالاتها، للحظات تحوّل فرحها إلى شيء من الغضب، اختار يوسف اليوم الخطأ الذي يتغافل فيه عن اتصالها.

"كذا يا يوسف!!.. تتجاهلني في أكثر أوقاتي احتياجًا لوجودك بجانبي، تفارحني.. وتشاركني تلك اللفتة الجميلة في حياتي".

زفرت في ملل وخيبة وهي تداعب شاشة هاتفها وطلبت رقم صديقتها المقربة غادة.

بعد أن أنهت مكالمتها أعطت ليوسف فرصة أخيرة، تمنّت من كل قلبها لو يجيب، ستعاتبه يقينًا لكنها ستفرح إذا رد.

إذا رد..

أدارت محرك سيارتها ومضت.

ربما لأن شرودًا أصابها فهي لا تدري ما السبب الذي جعلها تحيد عن الطريق الأنسب، في حين كانت أمامها فرصة تخرج من شارع جوهر الصقلي إلى طريق المنصورية مباشرةً، ومنه تستطيع أن تصل إلى صالح الجعفري لتصل خلاله إلى طريق صلاح سالم، حيث تستكمل وجهتها، إلا أنها مالت إلى اليسار لتأخذ طريق بدر.

بعين لا تبصر، وعقل غائب، ظلّت تتنقل بين الشوارع بسير مزجزج مضطرب، أتيحت لها فرصة أن تصحح مسارها حين وصلت لتقاطع شارع قراقوش لكنها كالمخدّرة تابعت، لا تدري هل هي من تقود سيارتها أم سيارتها

هي التي تقودها، تشعر أن ثمة مجالٍ مغناطيسي يجذبها إلى تلك الشوارع، مضت بسيارتها قاطعة تقاطع شارع الإمام المهدي ثم شارع العاضد، إلى أن وصلت إلى شارع الفواطم، هنا استدارت بسيارتها إلى اليسار لتصل بها إلى المنصورية..

لكن..

فجأة ضغطت بكل قوتها على مكبح السيارة..

قفز قلبها في حلقها وتوترت كل شعرة بجسدها..

كادت أن تدهسه..

من أين ظهر هذا العجوز؟.. هل ظهر من العدم؟.. أم بلغ بها الشرود إلى حد أنها لا تشعر بالسابِلة مِن حولها؟

بعين ذاهلة رأت العجوز ببشرته السمراء ولحيته الفضية وجلبابه وعمامته ناصعي البياض يشير ناحيتها بعصا يتوكأ عليها، وهو يتمتم بكلام غير مفهوم أو هكذا بدا لها كلامه.

تعلّق بسمعها حروف كلمة لم تعِ جيدًا كنهها فسمعتها هكذا "...اكة".

وعلى الرغم من ابتسامته التي كشفت عنها أسنانه البيضاء، وعلى الرغم من مسحة الوقار التي بدت على وجهه، وعلى الرغم من أنها لم تكن آكدة مما سمعته فإنها لا تدري ما السبب الذي جعلها تحمل تلك الحروف على محمل سافل.

"عجوز قبيح حقًا، ليتني دهسته".

شعرت أنها أخطأت حين توقفت لتطمئن عليه، بل وأخطأت حين سمحت للذعر أن يتسلل إليها بسبب هذا العجوز السافل، استحال خوفها

عليه إلى مقط واشمئزاز منه، ما جعلها تتمالك نفسها في ثوان وكأن شيئا لم يكن، أدارت سيارتها مرة أخرى وتحركت السيارة ببطء وهي تمر بجانبه، أرادت أن تنظر إليه بسخط لكنها تحاشت النظر إليه تأففًا، لكن مسامعها تفاجأت بصوته:

- لا تتأخري على ميعادنا.. سأكون في انتظارك.. مكتوب علينا نتلاقى.

- أيها الخجل أين حُمرتك؟ عجوز خرف. "غمغمت".

❋ ❋ ❋

-4-

كافيه بمدينة نصر..

دخلت شيماء، تمسح بعينيها المكان حتى وجدت ضالّتها فأقبلت عليها، وما إن اقتربت حتى تلاقت النظرات فتبعتها الابتسامات، تصافحتا وتبادلتا قبلتين بسعادة، قالت شيماء معتذرة:

- أعلم أني تأخرت، آسفة.

- حمدًا لله على السلامة، مبارك يا شوشو، مبارك يا بنت النبي.

شعرت بوخزة في قلبها، تمنّت لو أنها أتت من يوسف أولًا.

- يبارك الله فيك يا غادة.

تأففت شيماء من هواء قائظ ورطوبة لزجة، عانتها طوال اليوم، تحتاج إلى شراب بارد وإلى ترطيب وجهها بالماء.

- هل شربت شيئًا؟ "سألتها شيماء".

- نعمممم؟!!.. "استنكرت غادة في لهجة تعجبية"، ثم أردفت:

-الأكل والشرب اليوم على شرفك.

رحّبت شيماء بالفكرة، وقالت:

- اطلبي لنا شرابًا باردًا حتى أعود.

قامت شيماء إلى الحمام في حين أشارت غادة إلى الجرسون بيدها، فأتاها مبتسمًا، فقالت:

- طلبي المعتاد.

- نارجيلة بخليط اللبان والنعناع، وعصير مانجو بالثلج المجروش؟

احتلبت غادة ريقها بمجرد سماع "عصير المانجو"، فعصير المانجو بالنسبة إليها عشق لا ينتهي.

- تمام.

- شيء آخر يا فندم؟

- شكرًا.

تحرك الجرسون، في حين تنبهت غادة فجأة كالملدوغة، لقد نسيت أن تطلب شيئًا للتي ستدفع الحساب:

- لو سمحت.. أضف عبوة مياه غازية.

ابتسم لها وأومأ برأسه.

عادت شيماء بوجه رطب، وتزين جديد، وهي تنظر إلى مكان صاحبتها فألفتها تضاحك شخصًا ما في مكالمة هاتفية، وضح جليًا أنها تخص المشاعر، ابتسمت شيماء وعرفت يقينًا من الذي في الطرف الآخر من المكالمة.

- لماذا تضحكين هكذا؟ "سألت غادة".

- كان يجب أن تري منظرك، الهاتف بيد والنارجيلة باليد الأخرى.

ضحكت غادة وهي تعض شفتيها بحركة رقيعة قبل أن ترد:

- أكثر شيئين أحبها، بل وأحتمل بسببهما مرارة العيش على هذا الكوكب، "ثم بخبرة سحبت نفسًا عميقًا من نارجيلتها"، وقالت والدخان يخرج متقطعًا مع الكلمات:

- إسلام، والنارجيلة.

ثم ارتشفت من عصير المانجو بنَهم، حتى أتت عليه في ثلاث رشفات شرهات.

- بمناسبة إسلام، أهو من كان يهاتفك؟

- نعم.

- وكيف حالكما؟

- بخير، لا جديد.

- ألا ينوي مقابلتك بعدُ؟

- عن قريب، يقول إن مأموريته شارفت على الانتهاء، وسيعود بعدها إلى القاهرة.

- هل سيخطبك إذن؟

- لا أدري يا شيماء، يقول إنه سيتقدم لخطبتي وينوي للزواج في أقرب وقت ثم نسافر معًا، هل تظنين أنه سيفعل؟

- بالله لا أدري ما الخَبَل الذي أصابك، أنت لستِ صغيرة على تلك الأوهام.

شعرت غادة بدبيب من التوتر ترتعش عليه ضربات قلبها، فهرعت إلى نارجيلتها تحتلها احتلالًا، ثم قالت بفم أخفاه الدخان:

- أوهام؟

- بالطبع يا غادة، أوهام، أفيقي يا بنتي، تعرّفتِ عليه من الفيسبوك.. من الفيسبوك يا غادة.

- لكننا نحب بعضنا.

- تلك هي المصيبة، أنت تحبين وهمًا، تحبيه وأنت حتى لم تريه إلا صورًا، لا تعرفي عنه أي شيء، لا أهله، ولا سكنه، ولا أخلاقه، ولا أي شيء.

دخاااااان..

- قولي لي ما العمل إذا اكتشفتِ أنه ملاعب حقير، وكل ما تعرفينه عنه في الحقيقة هو سراب، وما يوهمك به أنه حب ما هو إلا كذبة كبيرة؟!!

صمتت شيماء قليلًا لتترك مجالًا لكلماتها، ربما تحدث أثرًا في عقل صاحبتها هذه المرة.

دخاااااااااااااان..

شعرت شيماء بالملل فنظرت في ساعتها فوجدتها تهدف للثانية والربع، أخرجت شيماء هاتفها لتجدد محاولة بائسة في الاتصال بزوجها، اتصلت وهي تقول لغادة:

- لقد سُرق منا الوقت، أسرعي لنغادر.

يرن..

لا مجيب..

"ما الذي شغلك عني لهذا الحد؟.. ترى ماذا تفعل الآن يا يوسف؟"

-5-

الساعة 2:00 ظهرًا

أنهى يوسف جولته كما يروم، ولذلك عاد سعيدًا إلى شقته ليستكمل خطته، على غير عادته لم يدخل بسيارته إلى مرأب العمارة، ولهدف محسوب أوقفها في مكان شاغر بجوار طوار بعيدًا عن محيط العمارة التي يقطنها، بعد أن أخذ من داخلها كل متعلقاته وأغراضه.

أمام مدخل عمارته يسمع نداءً.

- يا باشمهندس يوسف.. يا يوسف.

التفت حيث مصدر الصوت، وإن كان حزر وخمّن من هو صاحبه، أو بالأحرى من هي صاحبته، نعم.. إنها هي كما حزر، جارته، المراهقة الجميلة، التي تعيش هي وجدتها في الدور الثالث، في الشقة المقابلة لشقته، نظر إليها وابتسم.

"يبدو أن الأقدار تشملني بمباركتها، اختصرتِ عليّ طريقًا طويلًا لأصل إليك الآن، وها أنت أمامي بغير جهد يذكر"

- أهلًا هدير.

- أهلًا يوسف.

- أين كنت؟

- أشتري كتابًا، نصحتني به حرمكم المصون.

- شيماء؟

- ومن غيرها، هل تزوجت من غيرها يا هندسة؟ "وضحكت ضحكة مجلجلة تنم عن استهتار وطيش".. نصحتني به لأتدارسه معها على سبيل التمهيد قبل بدء الدراسة، فهي قد أخبرتني أن المنهج الذي ستقوم بتدريسه للطلبة هذا العام هو نفس موضوع رسالتها للحصول على درجة الماجستير.

أومأ لها يوسف بلا اكتراث، وتوجها معًا نحو المصعد.

وصلا إلى طابقهما، فخرجا، وتوقف كل منهما أمام باب شقته المغلق.

صمت..

نظرات..

لا يبتسم..

لا يتكلم..

لا يتحرك..

فقط.. يرمقها بنظرات تغوص في أعماق عينيها..

لحظات اكتست بصمت ثقيل..

يفترسها بعينيه..

ببطء تتالى ابتلاع ريقه..

نظر يوسف في ساعته..

"قد تصل زوجتي قريبًا، هيا.. اقتنص فرصتك، الحياة فرص، والفرص لا بد أن تقتنص".

وقته ضيق..

زوجته على أعتاب العودة..

فرصته تكاد أن تضيع..

خطته على حافة الفشل..

حر سمج.. رطوبة لزجة.. هواء لا يتجدد..

شعرت هدير برغبته في الانفراد بها، لكنه لا يتكلم، فخطرت لها خاطرة ماكرة لتستحثه على الكلام، فأخرجت مفتاحها وأدارته بالباب، فانفتح بطيئًا..

أزيز مفصلاته يصم أذنيه..

زادت حيرته، والصمت جعل الجو الحار يكتسي بفتور وملل وصفاقة، زادت الوقفة عن حدّها، وتسرب الملل إلى روحيهما.

- هدير!

- هه، "كمن عاد من ذهول":

- هل تريد شيئًا يا يوسف؟

خرج صوتها بنغمة غانجة، معزوفة على أوتار قلب هائم.

- نعم.. هل لديك دقيقة من وقتك؟

- بالطبع.

- لا أدري كيف أبدأ الحديث، لكن في نفسي شيئًا يأبى أن يخرج إلا إذا استوثقت منك عهدًا أن تكتمي عني، ويكون سرًا بيننا لا يجاوزنا إلى ثالث، ماذا تقولين في هذا؟

إذًا فقد صدق حدسها، ظنت بأنها سترتاح إذا ما كاشفها برغبته منها، تلك الرغبة الدفينة في أعماق صدرها هي الأخرى، لكنها مع ذلك شعرت بخطر محدق، كأن شيئًا يجذب طرفيها فيشقها نصفين.

كل ما في الأمر.. قرار.

بين قبول وإعراض، بين رغبة ورهبة، بين خوف ولذة، بين قلب وعقل.

كل ما تتمناه.. هو هو كل ما تخشاه.

شعرت هدير بضعف من أوصله اليأس إلى حقنة مخدر، الحقنة بيده، عروقه متحفزة.

كل ما في الأمر قرار..

ما زال الرجوع ممكنًا، وما زال بر الأمان متاحًا..

نصف خطوة بقدم مذبذبة تجعل طريق الندم ممتدًا للأمام بلا رجعة..

لكن في الغالب من أوصلته الحياة إلى حافة هذه الحاوية، هي هي التي تدفعه دفعًا للسقوط فيها قبل أن يقرر ألا يسقط.

- اطمئن، لن أخبر أحدًا.

بصوت خفيض سألها يوسف:

- كيف تجدين جدتك؟

أرسلت هدير ناظريها ليدورا في الشقة، فانقلب إليها البصر يحمل هدوءًا.

- نائمة.. لا تصحو الآن، هكذا هي عادتها.

- إذًا، أغلقي بابك، واقتربي مني لأكاشفك بما أريده.

ابتسمت، في حين شعرت باضطراب في معدتها، وبرودة سرت في أوصالها، وأعصابها أصابها شيء من الخدر.

- هل ستطول وقفتنا؟.. تفضل عندنا.

قالتها بخبث أرادت من ورائه أن تؤكد حدسها بأن ما يريده يوسف لا يليق داخل شقتها على الأقل بسبب وجود جدتها.

- بل أنت التي ستتفضلين عندي.

فجّرها يوسف، وانتظر ليرى أثر كلمته عليها، فوجدها تحدق إليه باستنكار وحيرة كأنها تطلب إيضاحًا، فأشار إليها بيده قائلًا:

- هيا، اقتربي مني لأكاشفك بما أريد.

أغلقت هدير الباب برفق وحرص ألا يحدث صوتًا تسمعه جدتها، اقتربت بجسد أصابه رعشة، وبطن أصابها الاضطراب، وصدر لا تنتظم فيه الأنفاس، ووعي غاب أو أوشك، اقتربت حتى كادت أن تلامس جسده بثدييها.

اشتعلت هدير حين مال يوسف عليها بصدره، وأناخ على أذنها برأسه ليقارب ما بين فمه وأذنها، ليهمس لها بسره.

أحست بسريان رعشة بدأت من تلك الأذن لتسري في باقي جسدها، شعرت بوهن في صدرها تباطأت معه أنفاسها، قدماها على وشك خذلانها، دقات قلبها كدقات طبول اشتدت قبل خوض حرب، أجفانها تراخت في استسلام.

"ابتعد عني يا يوسف، ابتعد عني وإلا اعتصرتك بين أحضاني، ومزقت شفتيك لعقًا وتقبيلًا".

أنهى يوسف كلامه، ونظر إليها فآنس منها الاستسلام والموافقة، نظر إلى ساعته ليراقب وقته، وفتح باب شقته، ابتعد عن طريقها وأومأ لها برأسه ناحية مدخل الشقة في إشارة "هل ستدخلين؟"..

فدخلت.

❋ ❋ ❋

-6-

توقفت شيماء بسيارتها أمام العمارة التي تقطنها، نزلت منها فاستقبلها الحر بقيظه فنفخت وتأففت، مشت تترنح بإعياء، وارتقت بالمصعد حيث شقتها.

مهلًا!.. ما هذا؟!!

تنبهت حواسها فجأة.

يُخيَّل إليها أن ثمة ضوء يتراقص من أسفل باب الشقة، فنظرت سريعًا إلى ساعتها.. لم يحن وقت رجوع يوسف بعدُ، غضّنت حاجبيها باستغراب، لا يمكن أبدًا أن تخطئ عيناها في تمييز ضوء يتسلل شعاعه من أسفل باب شقة مظلمة وسلم خافت النور.

مثل هذا الضوء الخافت لا يأتي إلا من الغرف الخلفية كالحمام أو المطبخ، أو.... غرف النوم.

غرف النوم؟

يوسف؟!

مستحيل أن يكون بالداخل، تنبهت لفكرة خطرت ببالها بَنتها على اتصالاتها المتكررة بيوسف التي لم يجب على أحدها.

هل أصابه مكروه فعاد إلى البيت؟

جفلت من مجرد الفكرة.

لكن لماذا لم يتصل بها ليخبرها؟

مستحيل أن يكون بالداخل، على الأقل لم تكن سيارته في مكانها.

ارتاحت لهذه الفكرة، لكنها راحة مؤقتة، إذا لم يكن يوسف فما الأمر إذن؟؟ كان سؤالًا مُحيرًا أكثر مما قبله.

هل نسي أحدنا مصباحًا قبل النزول صباحًا؟ هل... هل.....هل.... هل....؟

ما كل هذه الوساوس، توجّسَت في نفسها خيفة، ووقع شيء من الفزع في قلبها، فأثار الخوف فيها قلقًا ذهب بعقلها في كل الاتجاهات، تناولت مفتاح شقتها من وسط المفاتيح بحرص، خشية أن تصدر المفاتيح صلصلة، واقتربت هوينًا من باب الشقة تمشي على أطراف قدميها، وما أن وضعت المفتاح بحرص في مكانه من الباب حتى سمعت صوتًا من الداخل، فميزت منه حركة كأنها خطوات تحركت في سرعة.

"شخص بالداخل لم يتوقع حضوري"، هكذا فكرت.

تسمع جيدًا صوت أحد الأبواب بالداخل يتحرك، يغلق أو يفتح، ليست متأكدة. التاعت من الخوف والفزع، الأمر لا يُبشر ولا يُطمئن، غموض ليس له تفسير، ازداد خوفها، على الرغم من ذلك فقد أثار فيها الخوف دافع الدفاع عن مملكتها، فلم تشعر بنفسها إلا وقد فتحت الباب بسرعة كالانقضاضة، وخطت إلى داخل الشقة خطوة أشبه بالقفز.

لفت نظرها في هذا الجو شبه المظلم ضوء يتسلل من داخل غرفة الاستقبال، ثارت واهتاجت، ما كل هذا العبث؟.. أيًا ما كان فلا بد أن يتوقف.. حالًا.

أسرعت نحو مقبض الباب وأدارته فانفتح فدفعته.

هنا وضح كل شيء جليًا، لكنها لم تستطع أن تعي هذا الموقف.

وكأن عينيها قد خدعتاها، ببطء خطت خطوة أخرى داخل الغرفة، بعين اتسعت من الذهول نظرت إلى يوسف.

يا ربي!.. أنت؟... أنت يا يوسف؟

وضعت كلتا يديها على فمها وهي تكاد لا تصدق، بل هي فعلًا لا تصدق، ظنت أنها تحلم أو أن عينيها تتوهمان.

سالت من عينيها الدموع.. غزيرة.. ساخنة.

❋ ❋ ❋

-7-

غرفة الاستجوابات بإدارة أمنية بالقاهرة.

عيناه معصوبتان ويداه المتسختان مصفدتان بأكبال متصلة بأصفاد قدميه التي طالت أظافرها بقذارة وعفن، يجلس على كرسي، ترتعد فرائصه، رائحة خوفه فاحت وغطت على رائحة عرقه النتنة إلى حد ارتعش ذقنه لتَهتز معه لحيته القذرة، مُنكّس الرأس، يضم كفيه بين فخذيه في خزي وذل، جسده العفن القذر يفضح أنه لا يعرف طهارة ولا وضوءًا، أسمال بالية اهترأت على جسده فصارت كالخرقة تدل على فرط إهمال وقلة نظافة، أمامه مرآة زجاجية مموهة ذات وجهين، تعرض انعكاس صورته من ناحية، وعلى ناحيتها الأخرى تراقبه العيون خلال المرآة المموهة وتتبادل حوله التعليقات، كان ذاك في حين اقتحم أحدهم باب الغرفة عليهم، مندفعًا دون تحية، وقف قبالتهم بعين تأججت شررًا، نظر إليهم لثوانٍ قاسيات ليسبر أغوارهم، كان كنمر يستعد لمعركة يعلن فيها سيطرته الكاملة على المكان.

قطع أحد الضباط الثلاثة الصمت موجهًا الكلام إليه:

- يونس! أقدم لكَ فريق إدارة مكافحة الإرهاب.

ثم صمت للحظة يبتلع فيها ريقه قبل أن يردف بانهزام:

- أصبحت القضية تحت إمرتهم من الآن.

ونظر ليونس ليختبر أثر كلمته، فوجده واجمًا متحفزًا ساخطًا، هيئته عدائية كأن بينه وبينهم ثأرًا، في حين أردف:

- يونس!.. أحب أن تتعرف إلى سيادة العميد إبراهيم أبو النجا و...

- أعرفهم جيدًا لكن ما لا أعرفه لأي شيء تم استدعاء سيادتهم وإحالة القضية تحت سلطة إدارتهم؟

تكلم العميد إبراهيم أبو النجا وهو يخطو خطوة تجاه يونس في تحدٍ:

- سيادة النقيب! لا تجبرني أن أتخذ معك إجراءً يؤذيك، ولا تختبر صبري معك، لو كنت تظن أن استشهاد صديق لك يعطيك حق التصرف بهمجية فأحب أن أقول لك: أفق، واسمح لي أن ألفت نظرك أن...

- بل اسمح لي أنا يا فندم. "قاطعه يونس محتدًا غاضبًا غير مكترث بالرسميات":

- خالد ليس صديقي، صديقك هو من يجالس سعادتك لساعة كل أول شهر على القهوة..

لكن أخبرني سعادتك عمن كتفه بكتفي من أول يوم بكلية الشرطة، تخرجنا معًا.. عملنا معًا.. حمى ظهري وحميت ظهره، أخبرني عن أثر الرصاصة بذراعه حين دفعني من مرماها لتصيب ذراعه بدلًا عن رأسي، أخبرني عنه حين تأخر الدعم وتصفت دماؤه وأنا أحمل جسده الممزق من تراشق الرصاص، أخبرني عن نبرته والموت ينتزع صوته مني حين أوصاني بأمه وابنيه وزوجته، أخبرني عن جسده وأنا أُهيل عليه التراب، أخبرني عن أمه التي تعلقت برقبتي تصرخ "إياك أن يضيع دم ابني هدرًا".

- يونس!. "صرخ العميد إبراهيم في وجه يونس بلهجة رادعة":

- القضية الآن بين أيدينا، سَلّم لنا جميع المستندات، وستجلس مع مندوبينا لتخبرهم بكل ما تعرفه عن القضية.. كل ما تعرفه.

ثم أردف وهو يرفع سبابته أمام وجه يونس:

- ومن الآن وصاعدًا لا شأن لك بالمتهم ولا بالقضية، مفهوم.

تفاجأ الجميع حين صر يونس على أسنانه وهو يخرج مسدسه ويضعه أمامهم على المنضدة، ولم يمهلهم وقتًا لفهم ما وراء هذه الفِعلة إذ إنه توجه نحو باب غرفة الاستجواب، اقتحم الباب بما أجفل الرابض مكبل بالأصفاد داخلها، وقف يونس ينظر إلى المرآة بنظرة شعروا أنها ثقبت الزجاج المموه ونفذت إلى أعماق أعينهم جميعًا، لم يعرهم يونس أي انتباه، سقطت القوانين تحت قدميه، وتطايرت الرسميات في بخار أنفاسه المتلظية، أمسك الإرهابي من شعره وهز رأسه بعنف تألم معها، ثم بحمية وعنف انتزع عصابة عينيه مخالفًا بها كل قواعد التحقيقات بالإدارة، ورماها بالأرض بقوة وغيظ، قبل أن يوليهم ظهره ليقطع بذلك عنهم رؤية الإرهابي، ثم وقف واضعًا كلتا يديه على المنضدة وانحنى بجسده ليجعل قدر إصبع بين عينيه وعيني هذا التكفيري متجاهلًا عفن عرقه ونتن أنفاسه، يريد أن ينتزع بيديه رأسه من فوق كتفيه، لكن رأسه الآن قيمة لما تحويه من معلومات تجعل الثأر أمتع، وتجعل القلب أكثر برودة وأمانًا حين يعرف طريق باقي جماعته.

صرير أسنانه مسموع، نظرات عينيه مرهبة، امتعاض وجهه ينذر بالخطر، نضوح عروق رقبته وجبينه لا يُستهان به.

- أتعرف لمه كشفت العصابة عن عينيك؟

ريقه جاف كخشبة، كأن لسانه قد أكلته الهرر.

- يقولون إن ثمة خطر في التعرف على وجه أمثالي من الضباط..

خطر لا يزول إلا بموت أحدنا..

هل فهمت؟

ورحمة من قتلتموه غدرًا سأثاوي جثة أمك..

لن أسألك عن شيء.. مثل الكلب تخبرني بكل ما تعرفه.. وتخبرني أين مثوى باقي الكلاب؟

❋ ❋ ❋

-8-

أدارت شيماء بصرها في الغرفة التي وجدتها على خلاف ما تركتها بالصباح، الأرضية افترشت بأوراق الزهور الندية، المنضدة المستطيلة ازدانت بأربع شموع مضيئة داخل كئوس موزعة على الأركان الأربعة للمنضدة، شموع فواحة نشرت في الجو عطرًا، وتفرقت على سطحها قطع من الشكولاتة متنوعة الأنواع والأحجام، تتوسطها علبة كبيرة مغلفة بالحرير البنفسجي، تمسك بين فكيها المفتوحين بروازًا نحاسيًا بيضاويًا مشغولًا بدقة وحرفة برسوم إسلامية على دائرة حوافّه يتوسطها نقش محفور بخط الثلث

"اللهم صل على محمد و آل محمد".

انفرج قلبها سرورًا، وهي من السعادة في نهاية.

بعين تذرف دموع فرحة نظرت شيماء ليوسف وراء المنضدة واقفًا، جميل الهيئة، أنيق الثياب، باسم الثغر، ضامًا كلتا يديه وراء ظهره فظهر صدره أكثر اتساعًا، وقوامه أكثر طولًا، وطلعته أكثر بهاءً.

ابتسم إليها وهو يرنو إليها بنظرات تجلّت فيها عواطفه ما بين العشق والحنان، فما ازدادت هي إلا هيامًا، وما ازدادت دموعها إلا غزارة. كفكفت دموعها بيدها، فاقترب منها يوسف بتؤدة في خطوات قصيرة، يرنو إليها بعينين بالحب امتلأتا، وترنو هي إليه بعينين بالفرحة امتلأتا.

ولما كان يوسف منها أدنى من الذراع، أظهر يديه من وراء ظهره بباقة من زهور بهية متنوعة في ألوان من الأحمر والأبيض والأصفر، محاطة بلفافات من لونين جميلة الملمس والشكل.

تراقص قلبها طربًا حتى شعرت أنه سيتوقف، وارتفع صوت دقاته يغطي على صوت الموسيقى الهادئة التي هيأها يوسف خصيصًا لهذا الموقف، وهي تتنفس بصعوبة من فرط الفرحة مدّت يُمناها وتناولت الورد، بدت منها ضحكة ممزوجة بدموع، ولا تدري من منهما سبق الآخر ارتماءً في حضن حبيبه.

أحاطها من أسفل إبطيها، وأحاطته من حول رقبته، في حضن اعتصر فيه كل منهما الآخر، يبث في أحضان حبيبه لهيب مشاعر، المشاعر التي يعجز اللسان عن وصفها، تلك التي تنتقل دون كلام، مشاعر لا تعرف طريقها إلا بالأحضان.

لبثا في عناقهما طويلًا، فكانا كمن يخشى على حبيبه إذا أفلته ألا يجده مرة أخرى.

داعب يوسف رقبتها، ومسح بكفه على ظهرها، ضمها إلى صدره وهو يتمايل معها كالراقص، ليس فقط لصوت الموسيقى الساحرة حولهما، لكنها عادته، فهو لا يحتضنها إلا وشعر برغبته في الرقص.

قرب خده الأيسر من خدها الأيسر، لامسه فأحس حرارته التي زادها الانفعال، انتظر حتى شعر بنبض قلبها يستقر، وبأنفاسها تنتظم، وبصدرها يهدأ، فأرخى ذراعيه قليلاً، وحوّل وجهه أمام وجهها فتماست الأنوف، نظر في عينيها وأطال النظر، وجد دمعة تغادر أهدابها إلى خدها فمسح الدموع من على خدها بشفتيه وطرف لسانه، واستحلب دموعها وابتلعها مع ريقه، ثم طبع شفتيه بين حاجبيها في قبلة عميقة، دافئة، غاب هو فيها عن العالم، وكادت أن تغيب هي عن وعيها، فنامت على صدره، ثم أفاقت كمن تذكر شيئًا بغتة، وقالت وهي تقرص خده الأيمن بين سبابتها وإبهامها:

- ماكرة أنت يا بطتي، كيف ومتى هيأت كل هذا؟

- أحسبت أنني سأغفل عن مناسبة كهذه؟

- أرأيت؟.. لقد ذهبت مفاجأتك لي بعقلي، انتظر أريد أن أريك شيئًا.

استدارت تريد حقيبتها، وما أن أولته ظهرها حتى باغتها واحتضنها من ظهرها.

كم تعشق هذا الحضن..

تناول يدها وقبلها، فلوت رقبتها والتفتت إليه بوجهها وقبّلت زاوية شفتيه، فالتفت إليها وتناول شفتيها يرد قُبلتها، وبشيء من اللطف عضّ

أعلى شفتيها، فعاد صدرها إلى الاختلاج، وتسارع نبضها، وأغمضت عينيها لتغوص في عالم من العشق، ولم تشعر بشيء غير شفتيه إلا بيده، شعرت أنها تدور حول عنقها، فتحت عينيها لتجده يحكم ربط سلسلة من الذهب، فاتسعت عيناها وظهرت على وجهها الدهشة ممزوجة بالفرح، ورفعت السلسلة عن رقبتها قدر ما استطاعت لتنظر إليها فوجدت لؤلؤةً تتوسطها، أمسكت باللؤلؤة بحبور، وقالت:

- واوو!. ما أجملها يا يوسف، جميلة جدًا، ورقيقة، لكم أعجبتني.

- تذكرتك حين رأيتها، لكم تشبهك وتشبهينها غير أنك أجمل وأصفى.

- يا ربي! ماذا أفعل لأجعلك تشعر بنصف ما جعلتني أشعر به؟

- لا تفعلي شيئًا أكثر من ذلك.. أرجوك، فلا يوجد بقلبي متسع لأحبك أكثر.. ما الذي تريدين مني أن أراه؟ "سألها يوسف".

- أوه، لقد أنسيتني ثانية، لقد أخذتِ عقلي مرة ثانية يا بطتي.

قالتها وهي تفتح حقيبتها وتخرج المظروف، والتفتت إليه بسعادة الأطفال وهي تقول:

- شهادة نسبي ونسب والدي للنبي محمد عليه الصلاة والسلام.

تناول يوسف المظروف برفق وفضّه، وأخرج الشهادة وأخذ يقرأ سلسال النسب إلى آخره.

بسم الله الرحمن الرحيم

نقابة السادة الأشراف

ذرية سيدنا وإمامنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

شهادة نسب

تشهد نقابة السادة الأشراف أن

الشريف: ..... محمد عبد الله "...." عبد الله .....

من ذرية: .... مولانا الإمام الحسين رضي الله عنه .....

.....فهو الشريف محمد بن الشريف عبد الله بن الشريف "....." بن الشريف عبد الله بن الشريف أحمد بن السيد بن حسن بن خالد بن علي بن صلاح الدين بن علي بن خضر بن علي بن خضر بن علي بن عنان بن علي بن السيدة فضة بنت سيدي علي البدري بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن عمر بن علي بن عثمان بن حسين القسي بن محمد بن موسي بن يحيى بن عيسى بن علي التقي بن محمد بن حسن بن جعفر الزكي بن الإمام الهادي بن الإمام محمد الجواد بن الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء بنت **سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم،**

وذلك حسب ما هو مدون بسجل أنساب السادة الأشراف بالنقابة

برقم: .....

بتاريخ: .....

تحريرًا في:.....

نقيب السادة الأشراف

الشريف

السيد محمود الشريف

-9-

أقبل الليل على استحياء، يسدل ستائر ظلمته رويدًا رويدًا حين دخلت غادة شقتها، وما أن دخلت حتى نفخت بضيق وتأففت والتوى وجهها تبرمًا وحنقًا.

"متى يا ربي أغادر تلك الزريبة؟ متى ستأتي يا إسلام لتتزوجني؟ لا أُطيق العيش هنا ولا ساعة"

فقد طالعت غادة المنظر داخل الشقة، فوضى عارمة تصيب كل الأرجاء، رائحة الهواء الذي لم يتجدد منذ أيام عبقة.. معطنة، اتسخ فرش البيت وستائره، وكسا التراب أثاثه البالي، مخلفات مبعثرة هنا وهناك كأن أحدًا أتى بسلة القمامة ونثرها موزعة بالشقة.

كل ذلك جميعًا جعل من الشقة مرتعًا للحشرات، وبيئة خصبة لمعيشتها، ومسكنًا هادئًا آمنًا لا يُرَش فيه مبيد على نملة.. ولا يرفع فيه نعل على صرصار.. ولا يُهدم فيه بيتٌ لعنكبوت.

إلا حجرة واحدة بالبيت قد شذّت عنه، هي حجرة غادة، فهي مُعتكفها ومعبدها ومعيشتها، تحسن ترتيبها، وتعنى بنظافتها، وتداوم على رعايتها، واحتفظت فيها بكل أغراضها ومستلزماتها، ولا تكاد تغادرها إلا لغرض خارج الشقة، ولذلك فهي لا تسمح لأحد أن يدخلها فضلًا عن أنه يعبث بشيء من أغراضها وهي في ذلك حازمة صارمة، فخلّى أهل البيت بينها وبين حجرتها.

أبصرت غادة أخوها الصغير "حسن" البالغ من السنين عشرًا يجلس ضامًا كلتا قدميه أسفل مقعدته، جسده ممتلئ.. قامته قصيرة.. بشرته

مائلة للسمرة كمن لفحته الشمس.. مجعد الشعر كثيفه، ترك شعره ينمو حتى صار كأنه رأسًا إضافية يحملها فوق رأسه، وأكثر ما يميزه هو الحول الذي أصاب أيسر عينيه، وهو على هيئته هذه منفرد بين أخواته الثلاثة، فغادة والأخوان الآخران فاتحو البشرة.. ناعمو الشعر.. حظهم من الشحم قليل، وحظهم من الطول وفير.

لم يعرها حسن انتباهًا، بل لم يحول ناظريه عن التلفاز وكأن شخصًا لم يدخل، فاتجهت إليه غادة:

- أين الباقين يا لُكَع؟

انتظر "حسن" قليلاً قبل أن يجيبها بهدوء بارد وهو لا يحوّل إليها طرفه، وأجاب بنبرة هادئة كسولة متنهدًا:

- لا أدري.

- ومنذ متى وأنت تدري؟.. فأنت تعيش في هذا البيت كالضيف أو كنزيل الفنادق، تأكل وتشرب وتُسمن كرشك، كأننا نأوي تيسًا لا بني آدم. أين أمك وأخوتك والخنزير الذي أنجبك؟

-.....

- هل من الصعب عليك أن تعرف وأنت لا تفارق البيت؟

لم يكن من الصعب أن يعرف، فأخواه في الشارع يلعبان مع قرنائهما من الصبية..

وأمه أخبرته أنها ذاهبة لتزور "حنان" _ صديقتها المريضة_، وعلى الرغم من أنها تعلم أن صديقتها ليست بالمنزل فإنها ذهبت لبيتها، طرقت الباب، فتح لها زوج صديقتها، جسده ممتلئ.. قامته قصيرة.. بشرته مائلة للسمرة

كمن لفحته الشمس.. مجعد الشعر كثيفه، وأكثر ما يميزه هو الحول الذي أصاب أيسر عينيه.. لا تخطئ العين تطابق الشبه بين زوج صديقتها و بين ابنها حسن.

وأبوه في جلسة أُنس يداوم عليها يوميًا، مع قرناء الحظ والفرفشة ما بين سُكر وقمار، لكن أحلى السهرات لا تكتمل إلا بعاهرة ترقص على إيقاع طبل أيديهم على الحلل والصحون، يتناوبون على مضاجعتها واحدا بعد واحد وأحيانًا مجتمعين.

انتهى إلى مسامع غادة صوت جرس هاتفها يرن برنة خاصة للرسائل، فتناولت حقيبتها وأخرجت هاتفها وفتحته، وحركت شفتيها وهي تتمتم بقراءة نص الرسالة، وما كادت تفرغ من قراءتها حتى تغير وجهها وشهقت وهي تضع يدها على فمها، وما انتهت من قراءتها حتى أسرعت في جمع أغراضها من على مائدة الطعام، وفزعت إلى غرفتها مسرعة لا تلوى على شيء.

أغلقت بابها.. جلست إلى الكمبيوتر.. دخلت إلى حسابها على الفيسبوك.. وأشعلت سيجارة.

❋ ❋ ❋

-10-

أول محاضرة بالعام الدراسي الجديد..

إحدى قاعات المحاضرات بالجامعة..

الصخب يملأ القاعة على الرغم من عدد الطلبة القليل، الشباب يطاردون الفتيات، والفتيات يثرثرن معًا ويلتقطن صور بوز البطة.

دخلت شيماء إلى القاعة بأزياء فضفاضة جديدة لم تعهدها من قبل، تحمل اللاب توب، وخلفها العامل المسئول عن القاعة ليهيئ لها الميكروفون والبروجيكتور. لأول مرة منذ اشتغالها بالتدريس تشعر برغبة في فصل مجالس الشباب عن مجالس الفتيات، لأول مرة تشعر بلسعة غيظ كلما سمعت صوت مجلجل لضحكة فتاة من الفتيات.

تحاملت وكظمت غيظها ونظرت إلى الجميع في ابتسامة وحيّتهم، هنأتهم بالعام الجديد، ثم تناولت قلم السبورة وكتبت بخط عريض واضح:

"شيماء محمد"

ثم كتبت أسفل ذلك :

"النبي محمد.. مصري"

- هذا عامكم الأول، ولمن لا يعرفني فهذا اسمي، وهذا موضوع المنهج الدراسي الذي سأدرسه لكم.

- النبي محمد مصري؟

أتاها صوت مستنكر من بين الصفوف، شأنه شأن كل الحضور، إلا هدير، وبعض الطلبة غير المكترثين بموضوع المحاضرة بل بالجميلات الحاضرات بالقاعة.

- نعم.. هذا ما سندرسه معًا، وبالمناسبة لا يوجد كتاب، بل سندرس المنهج عن طريق أبحاث ستقومون بها، وذاك بسبب أن الكتاب لن يتم طباعته إلا بعدما أحصل على درجة الماجستير، غير أن قيامكم بالأبحاث سيوفر علي عناء الاستفهامات الكثيرة والتعجب من المعلومات الحقيقية التي أنتم بصدد معرفتها ودراستها، سأخبركم كل محاضرة عن موضوع المحاضرة التالية، ستذهبون إلى المكتبات أو تبحثون عن الكتب على الإنترنت، وسأناقشكم فيما جمعتم من معلومات.

لم تحصل شيماء على ربع انتباههم بَعدُ:

- اليوم سأحكي لكم حدوتة.

نصف انتباههم.

- صلوا على النبي.

- عليه الصلاة والسلام. "أصواتهم متفرقة تشبه الهمهمة".

ثلاثة أرباع انتباههم.

- يُحكى أنه في قديم الزمان خلق الله آدم.

انتبه الطلبة إلى شيماء الراوية، ومالت آذانهم لسماع الحدوتة.

* * *

آواخر العصر الجليدي الرابع..

عدن باليمن..

دخل شيث بن آدم على أبيه، قبّل يديه وجبينه، خاشعًا جلس بين يديه، نظر إليه بحنو، يريد منه الإذن، فقد هبّت القافلة، وتأهب الركب للمسير، بدموع في عينيه وانقباضة حزن في قلبه وضع آدم أبو البشر يده على رأس ابنه الحبيب ودعا له ولنسله بالبركة، وأذِن له على كُره بعد أن ذكّره بالأمانة.. حسن عبادة الله وعمارة الأرض أينما حلّ وارتحل، ما ألوع أن يفارق آدم ولده شيث الذي هو "هبة الله"، ذاك الولد الذي عوّضه به الله عن هابيل وسرّى به عن حزنه بعد الإحنة التي دبت بين الأخوين وسال فيها الدم، وزُهقت فيه الروح .

كان شيث أحب أبناء آدم إليه وأفضلهم وأكثرهم شبهًا به، رزقه به الله بعد مائة وثلاثين سنة مضت من عمره فأسماه شيث أي هبة الله، وورث عنه شيث العلم والحكمة، وصار في أهله يذكّرهم بالله ويعلّمهم دينهم، حتى فاضت بهم الأرض وصار خراجها لا يسد جوع كل هذه البطون، فرأى أن أوان الهجرة قد أزف.

مضيق باب المندب..

عبرت قافلة شيث وأبنائه وأحفاده أرض المضيق اليابسة سيرًا على الأقدام بعضها حاف وبعضها لبس جوربًا من جلد أرنب مسلوخ، النساء تحمل الأطفال والمتاع، والرجال يحملون العصا والرماح المصنوعة من الأحجار المشحوذة، ويتدثرون بورق الشجر والريش وبعضهم بجلود الأنعام

والوحوش، يتبع القافلة قطيع صغير من الغنم والبقر يستعينون بلحمها ولبنها وجلدها المسلوخ بعد الذبح، الهواء بارد والثلج كسا كل مكان مد البصر، الأرض زلقة، والرياح شديدة، وسط الرياح تشق الأجساد المرتعشة من البرد طريقها غربًا نحو إفريقيا، في حين هاجر أخوه قابيل ونسله شرقًا، كانت الحياة فيما مضت سهلة بسيطة، التربة نقية، تمسك الماء فيشربون ويرعون ويزرعون، لكنها الآن ضاقت عليهم بما رَحُبت، فقد زاد نسل آدم وكثرت ذريته، فكان حتمًا من الارتحال لأرض الله الواسعة.

وكلما حلّوا بمكان وكثر فيه نسلهم تركوا الأب وهاجرت الأبناء تدريجيًا ناحية الشمال بمحاذاة الساحل الغربي للبحر الأحمر، يتتبعون سيل المياه العذبة ومجاريها، وقد كانت تلك المناطق في هذا الزمان باردة ممطرة، تمسك أرضها الماء، وتنبت العشب والكلأ، ولدَ شيث أنوش، وولد أنوش قينان، وولد قينان مهللئيل، وولد مهللئيل يارد، وهم على حالتهم تلك تمضي بهم الأيام والسنون ما بين حال وترحال، حتى انتهى المطاف إلى مصر فوجد من هاجر إليها أن ماءها دائمًا وعشبها لا ينقطع وصيد البر والبحر وفيرًا، فاستقروا واجتمعوا، وعلى أرضها عاش يارد وولد إدريس عليه السلام، وقد أدرك إدريس من حياة آدم ثلاثمائة وثماني سنين.

تباعدت الأرض وطال الزمان فتخلخلت العقيدة بنفوس أبناء آدم، فاختلط التوحيد بالشرك وتكاثرت البدع، فتهيأ الزمان لاستقبال أول رسالة سماوية..

على أرض مصر..

* * *

العصر الحجري الحديث "6000: 5000 **ق. م**"

قبل عصر الأسرات المصرية القديمة..

مصر "**جيب تاه**.. **أي: أرض الإله**"..

منف "**المدينة المقدسة**"..

على أرض منف المقدسة عاش يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام، وعليها تزوج ووضع نطفته، فكانت نطفة مباركة، أنبتت شجرة من نور، فولد يارد إدريس عليه السلام وقد كان عمر آدم حينها 622 سنة.

بعد مرور ثمانين عامًا على مولد إدريس عليه السلام..

بعد بعثة النبي المصري إدريس عليه السلام..

عمّ الفرح مدينة منف كأيام العيد، اجتمع الناس ليحتفلوا برجوعه من رحلته الدعوية ببلاد الهند، ينثرون الورود على رأسه وتحت قدميه، يمشي وسط جمع الناس بهيبته، ساكن الأعضاء في مشيته، خطاه متقاربة، نظره إلى الأرض، يطيل الصمت ويكثر الفكر، قليل الكلام، يحرك سبابته إذا تكلم، طويل، عظيم الجسد، عريض الصدر، كثير شعر الرأس، كث اللحية، جميل الوجه، مليح الشمائل وحسن التقاسيم، برّاق العينين أكحلها، وبوجهه عبسة زادته هيبة ووقار، يتمتم بشفتيه مسبحًا لله، ويتدثر بردائه المخيط، والناس حوله يتقافزون فرحًا ويبكون خشوعًا، يهتفون له:

- هرمس الهرامسة.. مثلث العظمة.. المثلث بالنعمة.. حكيم الحكماء.. عالم العلماء.. ملك الملوك.. صاحب البركات.

من وسط الجموع غير بعيد هتف صبي بفرح وهو يركب منكبي أبيه:

- لقد رأيته يا أبي.. لقد رأيته، لقد رأيت المثلث بالعظمة.

- مرحا يا ولدي مرحا.

وأخذ الأب يتراقص ويتمايل بولده، والصبي يضحك غاية السعادة.

- لماذا ينظر في الأرض يا أبتي؟ ليته ينظر ناحيتي فأرفع له يدي بالتحية.

ذُهل الطفل وارتجف مهابة حين نظر بعينيه الجميلتين إلى النبي المعظم ثلاث مرات، وقد توقف النبي العظيم عن سيره فجأة، ثم نظر مبتسمًا إلى الصبي ورفع يده الشريفة إلى أعلى حتى ظهر بياض إبطه وحيا الصبي.. تلجلج الصبي وقال لأبيه:

- لقد نظر إلي.. لقد حياني.. حياني يا أبي.

- بوركت يا ولدي، تلك منحة تستوجب شكر الخالق الواحد.

- هل سمعنا يا أبي؟

- يا ولدي لا تخض في حديث يجلب علينا الغضب.

احتار الصبي، وانشغل عقله فلم يتمالك نفسه إلا وقد سأل ثانية:

- هل يمكن أن يسمعني على بعده عني ووسط هتاف الناس؟

- صه يا ولدي، إني لأخشي الريح أن تنقل إليه حديثك فيأخذ عليك، فوالله قد رأينا المثلث بالعظمة يكلم السحاب فطاوعته فيما يقول، صه.

- أتظن يا أبتي أنه...

- وبعدها لك يا صبي؟ صه.

صوت ثان:

- قد منّ علينا الخالق الواحد الأحد الذي أوجد نفسه بنفسه وليس مثله أحد إذ اصطفى أرضنا لتكون أرضه، وتكون أول أرض يهبط عليها وحي السماء، لتكون منبع نوره، ورأس حضارته. وأرسل لنا المثلث بالعظمة إدريس وجعله من أبناء مصر، ومن نسله _ كما أخبرنا مثلث العظمة_ ستخرج الأنبياء تباعًا حتى نبي آخر الزمان، فصارت دماء المصريين تجري في عروقهم جميعًا.

صوت ثالث:

- مثلث العظمة إدريس المصري أول من نزل عليه الملاك جبريل بالوحي، أرسله الله إلى المصريين برسالة الحنيفية الإدريسية فكنّا نحن المصريون أول الحنفاء وأول الموحدين، وأول من دعا إلى الله بعد آدم وشيث، وأول من جاهد_ ونحن معه_ في سبيل الله.

- هو وارث كتاب سر الملكوت عن أبيه شيث عن أبيهم آدم.

- وأول من خط بالقلم بعد آدم، فاخترع الكتابة وعلّمها للناس.

- وأول من خاط الثياب ولبسها وقد كنّا من قبله نتدثر بالريش وأوراق الشجر وجلود الأنعام.

- وأول من نظر في استخراج الحكمة وعلم النجوم وعلم الرياضة والمنطق والطبيعة، حيث أفهمه الله سر الفلك وتركيبه فعلم دور الأفلاك وطبائع النجوم واجتماع الكواكب.

- وكان فيما قال المعظم ثلاثًا بأنه رأى أن آفة من الماء والنار تأكل الأرض، وكأن هلاكًا سيصيب قومًا بعدنا وسيأكل الأرض ذاك ما قال عنه إنه الطوفان.

- فهّمه الله عدد السنين والحساب، ونظر إدريس المصري عليه السلام في الطب وتكلم فيه وألف لنا قصائد موزونة في العلوم الأرضية والسماوية.

- وأتاه الله العلم والحكمة والنبوة فصار مثلثًا بالعظمة، دائم الفكر في صنع الله، فزاد فكره وقل كلامه في غير ذكر الله والدعوة إليه فنقيت روحه، غير أن من جالسه وأنعم الله عليه بالقرب منه أخبرنا بأن من نعم الله على مثلث العظمة إدريس لعظم عقله ونقاء روحه وصفاء قلبه صار روحانيًا يرى بعينيه الأطياف والجن ويجالس الملائكة.

- مثلث العظمة الذي يصوم الدهر ويعمل الفكر، فصار عقلًا مجردًا وروحًا خالصًا فخاطب السحاب وكلمها ورأى الملائكة ونادمها، وصب الرصاص فصار ذهبًا.

- ودعا إلى دين الله والقول بالتوحيد والزهد في الدنيا والطمع في الآخرة، وأمر بالصلاة والصيام والزكاة وجهاد الأعداء، وحرم لحم الحمار والكلب والخنزير والمسكر من كل مشروب وشدد على حرمته.

- وعرّف صفة نبي آخر الزمان الذي سيأتي من نسله ومن نسل المصريين، وقال عنه: يكون بريئًا من الآفات والمذمات كلها، كامل في الفضائل المحمودات، لا يقصر عن مسألة يسأل عنها مما في الأرض والسماء، ومما فيه دواء وشفاء من كل ألم، وأن يكون مستجاب الدعوة في كل ما يطلبه، وأن يكون مذهبه ودعوته المذهب الذي يصلح به العالم.

- أرسله الله بدعوة لكل العالمين، فأقام مثلث العظمة إدريس للأمم سننًا في كل إقليم، تليق كل سنة بأهلها، وقسم الأرض أربعًا، وجعل على كل ربع منها ملكًا يسوس أمر المعمور فيها ويلزم أهلها بالشريعة، الأول إيلاوس والثاني أوس والثالث سقلبيوس والرابع أوس آمون.

- فكان عليه السلام أول من رسم المدن والعمران، وجمع له طلاب العلم فعلمهم السياسة والمدنية وقرّر لهم قواعدها، فبنت له كل فرقة من الأمم في أرضها حتى صار عدتها مائة وثماني وثمانين مدينة.

- صارت ألسن الناس اثنين وسبعين لسانًا فعلمه الله منطقهم جميعًا ليعلم كل فرقة منهم بلسانها، ويقول بأن الألسن جميعها فروع عن الأصل كاختلاف اللهجات في الإقليم الواحد.

- وهو أول من بنى الهياكل ومجد الله فيها، وبنى الهياكل والأهرام والبرابي وخاف من ضياع العلم فصور فيها جميع الصناعات والعلوم نقشًا ورسمًا.

* * *

- أتباع النبي محمد مسلمون، وأتباع النبي عيسى نصارى، فما اسم أتباع النبي إدريس؟

كان ذلك سؤال من أحد الطلبة، فأعجبت شيماء بالتفاعل، وأجابت:

- أتباعه تسموا بالصابئة الأحناف، و حنف هي كلمة مصرية قديمة، وهم قوم موحدون لا يعبدون شمسًا ولا قمرًا ولا نجومًا بل عاشوا على التوحيد الخالص على ملة إدريس عليه السلام الحنيفية، وهم موجودون للآن ووفقًا لكتبهم المقدسة بأنه عليه السلام هو من بنى الكعبة من جملة الهياكل والمعابد التي بناها لله في مختلف البلدان.

- أليس من بناها هو إبراهيم عليه السلام؟. "أتاها صوت أحد الطلاب".

- لا.. هو من رفع القواعد، لكن البيت الحرام كان مبنيًا قبله، لا تستعجل الأمور، سيأتي الحديث عن ذلك فيما بعد.

نظرت شيماء إلى ساعتها، فوجدت أن وقت المحاضرة قد انقضى إلا قليلاً، فقالت وهي تتنقل بين الصفوف:

- والآن.. ما أركان الإسلام؟

رفع بعضهم يده للإجابة، فأشارت لأحدهم بالحديث.

- خمسة، شهادة أن لا إله إلا الله، إقام الصلاة، إتاء الزكاة، صوم رمضان، حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

- أحسنت.. من منكم يخبرني بأركان العقيدة المصرية القديمة؟

سكت الجميع وتبادلوا النظرات، في حين ابتسمت شيماء، وقالت:

- هذا هو موضوع المحاضرة التالية، قوموا بأبحاثكم، وأبهروني.

ودّعتهم، ولملمت أغراضها، وغادرت.

❋ ❋ ❋

-11-

حفلة عيد ميلاد شيماء..

رن جرس شقة يوسف، فتوجهت خادمة _ استؤجرت خصيصًا هي وطاهٍ للنهوض بخدمة هذه المناسبة _ إلى الباب وفتحته، ابتسمت ابتسامة اكتسبتها بحكم خبرتها بالعمل في مجال الخدمة، وحيت الحاضرتين اللتين بالباب:

- أهلًا وسهلًا.. تفضلا.

وانتحت قليلًا بأدب مدروس على أحد جانبي الباب لتعطي مساحة للمرور، وهي تشير بذراعها ناحية الداخل، وهي لا تزال تحتفظ بتلك الابتسامة الرقيقة.. الباردة.

- من أنتِ يا حُلوة؟

كانت السائلة هي إحدى الضيفتين اللتين بالباب، وهما على وجه التحديد _ أم يوسف الثانية _ خالته مدام ثريا، وابنتها الدكتورة سارة.

دخلتا، وأغلقت الخادمة الباب، وتبعتهما، لكن فجأة توقفت ثريا، ونظرت إلى الخادمة وهي تتحسس جسدها:

- هل أنت الخادمة؟

- نعم.

- قِطة جميلة، هل يوسف هو الذي استأجرك؟

- نعم.

- للحفل أم للخدمة المستمرة؟

- للحفل فقط.

- خسارة.

ونظرت ثريا إلى ابنتها وهي تقول:

- أو تعلمين يا دكتورة!.. لو استمرت تلك الخادمة بالبيت، فلن تترك يوسف إلا عند تلك الجملة التي دومًا أسمعها بين أبوك والخادمات اللاتي نستأجرهن:

"عيب يا سيدي.. لا يصح يا سيدي.. سيدتي ستدخل علينا يا سيدي".

وما أن دخلتا حتى وجدتا شيماء في استقبالهما، تبادلتا التحية والمجاملة بعد عناق روتيني وقبلتين باردتين. سألت ثريا عن يوسف، أجابتها أنه يجلس مع صديقه طارق، فسألت عن حماتها – أختها -، فأشارت لها شيماء إلى المكان الذي تجلس فيه، ذهبت ثريا وسارة لتجلسا جار أختها، وما أن رأتها الأخيرة حتى قامت وسلمت، عاتبتها أختها عن التأخير، فاعتذرت ثريا وتعللت بازدحام الطريق، ثم توجهت إلى سارة بابتسامة تلاها عناق طويل، ثم قرصت خدها بلطف مصحوب بكلمات عتاب، و ما هي إلا لحظات حتى أقبل يوسف يرحب بهما بودٍ و بشاشة، ثم تركهما سريعًا _على غير عادته إذا حضرتا_ ليجالس صديقه طارق، لكن لفت نظر خالته ذاك الطفل الجالس بين يوسف وصديقه.

التفتت ثريا إلى أختها لتسألها عن الطفل، فوجدت أن عينيها هي الأخرى تراقب الطفل بشغف.

- من هذا الطفل الذي يلاعبه يوسف؟

- آدم.. عمه طارق، أبوه مصري وأمه إنجليزية، ويعمل والداه بإنجلترا، وتركا الطفل مع عمه لينتسب إلى المدرسة، على أن يسافر لهما معظم أيام الدراسة ويعود قرب وقت الامتحانات.

- ينتسب إلى المدرسة؟.. وكأن الحظيرة ينقصها بغل.

ثم أردفت ثريا وهي تشير إلى أختها:

- ألا ترين نتيجة التعليم المصري؟!

نظرت إليها أختها شزرًا، وقبل أن ترد عليها، أتت شيماء ترحب بها:

- نوّرتينا يا خالتي، الحفلة ازدادت حلاوةً بحضورك.

بابتسامة صفراء ربتت ثريا على ظهرها، بمجاملة منافقة لا تخيل على طفل.

"تداهنيني يا بنت الأفاعي!.. أحقًا ترين أن الحفلة ازدادت حلاوةً بحضوري؟.. أنت أعلم الناس أني أحتملك فقط من أجل يوسف، ولا لشيء سواه"، لكن ثريا ألقت إليها بكلمات مضمونة الأثر من التكدير وقلب المزاج، كثيرًا ما جربتها ودائمًا تنجح:

- بل كانت ستزداد حلاوة لو أنك تنجبين، يا حسرتي وأنا أرى يوسف وهو يلاعب ذاك الصبي، لو كنت تنجبين لكان ابنكما في مثل سنه.

التهب وجه شيماء واحمر، ابتلعت ريقًا مرًا لاذعًا، وتوترت حتى ارتعشت خدودها، وتنفست بصعوبة قبل أن تجيب:

- ربنا كريم..

فرحت ثريا بالكَدَر الذي أحدثته بنفس شيماء، ثم لفت نظر ثريا الداخلين من الباب.. "أهلاً بالعقربة الكبيرة"، ثم نظرت لشيماء وهي تقول:

- شيماء! أمك وصلت.

وما أن أسرعت شيماء نحو الباب تستقبل أمها وأخيها، حتى مالت ثريا على أذن أختها:

- أتدري لمه طلبت الهانم من يوسف أن يقيم لها حفلًا؟

لكن أختها تجاهلت الرد عليها، واكتفت بنظرة من شأنها أن توقف الاسترسال في هذا الحديث، لكن...

- أنا أخبرك، إنما أرادت أن تقول لك إنها بنت نبي وأنت بنت كلب.

قال من نسل النبي قال، أكيد من فرع أبي لهب..

صحيح "حظ العواهر جواهر".

* * *

دخلت أمها، وظهر خلفها أخوها يونس.

النقيب يونس محمد عبد الله..

الأخ الوحيد لشيماء، وإن كان من الإنصاف أن يكون أخًا ليوسف لا لشيماء، فقد تشابها إلى حد عجيب، وهذا كلام من رأى ثلاثتهم مجتمعين.

- نجوت بحياتك إذ أتيت، لا تدري يا مسكين ماذا كان يحاك لكَ إذا لم تأتِ. "قالها يوسف وهو يحتضن يونس".

- وهل أقدر ألا آتي؟

حملت نبرته مسحة الحزن بداخله، وفارقت عيناه تلك اللمعة التي تميزها، ففهم يوسف أن الحزن ما زال ملازمه من يوم استشهاد صديقه أمام عينيه، فربت على كتفه وقدم له التعزية.

كان يونس برفقة صديق له، فقدمه إلى يوسف وتعارفا، فرحب به يوسف ودعاه للدخول، ثم مال إلى حماته قبّلها ورحّب بها، وداعبها بمزاح خفيف حول شيماء ويونس وما كان قد يحدث لو أهمل يونس حضوره كالمعتاد، فضحكا.

* * *

ترتفق غادة حافة الشرفة بشقة شيماء، وعين تراقبها منذ دخولها الشرفة..

لغة جسدها المتمايل كالرقص تفضحها، وتَطايُر كلمات الغرام من بين شفتيها يكشف سرها..

بعد مكالمة عاطفية طويلة، أنهت غادة مكالمتها ثم احتضنت الهاتف بعد أن قبّلته مرات، وتنهدت من الأعماق، ولم تنس بالطبع قبل أن تنهي مكالمتها أن ترسل حار قبلاتها للطرف الآخر مصحوبة بكلمات ختامية، تلك العبارات التي يظن كل منا أنها تخرج من قلبه، ثم يكتشف أن كل العشاق الجادين منهم واللاعبين لا يقولون إلا هي هي العبارات نفسها، على كل حال وقفت بالشرفة تستمتع بتلك الجرعة من الحنان ترطب بها قلبها، فأصابها شيء من السرور تتمنى لو يكتمل.. بسيجارة، خشيت أن تتأخر على شيماء وتتركها وحيدة وسط المدعوين، فاستدارت لتغادر الشرفة..

وفجأة..

شهقت شهقة فزع مع صرخة كتمتها بيدها..

شعرت بنبض قلبها يتوقف، وبثورة أصابت صدرها..

أغمضت عينيها بإعياء، ووضعت كفها على قلبها كأنها تطمئن أنه لم يتوقف من الرعب. حاولت أن تتماسك وتهدأ، فتحت عينيها ببطء ونظرت إلى الواقف أمامها، بقوامه الممشوق، ولحيته المُشذّبة، وجدته هادئًا، يبتسم برقة من حرف فمه، وكأن البارد لم يتسبب لها بجفلة كادت أن تموت فيها بسكتة قلبية.

أطال النظر إليها، ما زال هادئًا، باسمًا، توقعت أن يعتذر على الأقل، لكنه لم يفعل، شعرت بثقته تشع من عينيه، ما جعلها تعتذر هي له:

- آسفة، لم أنتبه أن أحدًا يقف ورائي.. أنت صديق يونس، أليس كذلك؟

لم يرد عليها، واكتفى بنظرة إلى يده، فنظرت هي حيث نظر، فوجدته يحمل كأسين من العصير بيد واحدة حيث جعل عنقي الكأسين يختلفان بين أصابع يده متقاطعين كحرفX ، استغربت، وأشارت بيدها إلى نفسها وهي تغضن حاجبيها استفهامًا كأنها تسأل "هل هذا العصير لي؟"، فرد عليها هو الآخر بلغة الصمت، واكتفى أن أشار بعينيه في الشرفة يمنة ويسرة وكأنه يقول لها "وهل هناك أحد غيرك؟"، انتقلت غادة من حالة الرعب والجفول إلى حالة الاستفهام والاستغراب، وبيد مترددة تناولت كأسًا من بين أصابعه، اتسعت ابتسامته لتشمل كلتا جانبي فيه، فردت عليه بابتسامة متوجسة، تعجبها هذه اللعبة، هذا الجو من الصمت والإشارات، شيق جدًا ومثير.

- أشكرك على هذا اللطف.

أومأ برأسه للأسفل، فأثار بداخلها استفهامًا

"ماله؟ لا يتكلم؟.. مصيبة أن يكون أخرس؟.. وسيم وأخرس؟! ما هذا الحظ النّحِس!"

- مَن حضرتك؟ "سألته".

هنا غادر صمته، خيب ظنها في خرسه، وأجاب بصوت عميق رخيم:

- "مالك!"

- أنا الحمد لله بخير.. مَن حضرتك؟

صمت قليلاً وهو يبتسم ابتسامة خرجت مع زفرة من أنفه.

- "مالك!"

"يالا الليلة السوداء.. كنت أعرف أنك عليل.. هكذا حظي لا يكتمل.. ظننتك أخرس.. لكنك أصم"

زادت غادة قليلًا من ارتفاع صوتها وأجابته وهي تشير بيديها، وتضغط على مخارج الحروف، وهي تحرك شفتيها بعصبية وبطء لعله يقرأ الشفاه:

- أنا بخير، أقول لك: مَن حضرتك؟

صمت قليلًا، وما زال محافظًا على نظرته الواثقة، وابتسامته اللطيفة، حين شعرت هي بخيبة أمل، فقد ضاعت فرصتها في أن تتعرف على هذا الوسيم، ففي حياتها لم تحظَ بصديق يعرفها وتعرفه بمثل وسامة وأناقة هذا الأصم، قطع أفكارها صوته:

- أنا اسمي مالك.

هنا تلعثمت وأحست بالغباء والبلاهة والإحراج، فقالت متلعثمة وهي تشير بيديها في كل الاتجاهات بتوتر، وفي غير سيطرة:

- أوه.. أتقصد أن.. لقد ظننتك.. أقصد.. أنا آسفة لقد...

انتشلها من تلك الحالة حين ضرب حافة كأسه بحافة كأسها ثم رفع كأسه أمام وجهها في تحية قبل أن يرتشف منه، وبحركة آلية دون تفكير منها

وجدت نفسها تتبعه وترتشف من كأسها بعد أن حيّته بالطريقة نفسها، وما أن رشفت من العصير رشفة حتى أصابها العجب، فقد كان عصير مانجو.. بالثلج المجروش.

أحست بحيرة وتشويش أنساها كل ما فات منذ أن استدارت فوجدته بغتة خلفها، مشروبها المفضل، هل هي صدفة؟

لكنه لم يترك للدهشة كثيرًا من المجال، إذ باغتها بيده تخطف هاتفها من بين أصابعها، وضع كأسه على حافة الشرفة ومسك الهاتف بكلتا يده، لاحظت غادة أنه يمسك بالهاتف من حوافه، وأخذ مالك برفع وخفض الهاتف في كل الاتجاهات، بدا لها أنه يبحث عن شيء في شاشة الهاتف المظلمة كمن يرفع البصمات، كان تخمينها قريبًا من الصحة، إذ إنه كان يبحث عن انعكاس الضوء على الهاتف، وما هي إلا لحظات حتى رأته يمرر إبهامه على الشاشة ليرسم رمز المرور حرف "W" ، لقد قام بتشغيل الهاتف.

ودون أن ينظر إليها، وكأنه يتعامل مع هاتفه الخاص، أمام عينيها الذاهلتين إلى حد الجحوظ، رأته ينقر بأنملته حتى ولج إلى جهة الاتصال، وكتب رقمًا ثم ضغط على زر الاتصال، وما لبثت أن سمعت غادة صوت هاتفه يرن بجيب بنطاله.

تريد أن تفعل شيئًا لإيقافه، حتى من باب الادعاء الكاذب أنها تعترض على ما يفعله، لكن شيئًا بداخلها كان مستمتعًا بهذا العرض، أحبت جرأته، وأحبت أكثر ثقته بنفسه، تركته يستمر، تركته لعله يفاجئها بما هو أكبر.

أغلق هاتفها، ومد يده إليها بالهاتف، لكنها كانت بحالة صدمة جعلتها غير قادرة على تناول الهاتف من يده، فأمسك هو بكفها ووضع بداخله الهاتف، وضم عليه أصابعها.. إصبع إصبع.

لم ترمش عيناها المتسعة عن آخرها، في حين سمعته يقول لها وهو يغمز بإحدى عينيه:

- سأكلمك لاحقًا.

ودون أن يزيد بكلمة واحدة، أو حتى ينتظر ردها، أعطاها ظهره وغادر.

❋ ❋ ❋

-12-

فجر ثاني يوم بعد الحفلة..
الساعة 5:10 صباحًا

قضى يوسف ليلته في سهاد، ينظر بحيرة إلى تلك الغريبة التي تنام بجانبه، لا يعرف من هي؟ ولا يدري ماذا يفعل معها؟ يتقلب يوسف على جانبيه، يأبى النوم أن يترفق به ويُنعم عليه بسدال الغفوة، كانت ليلةً طويلة جميلة..

لولا....

غادر الضيوف بنفوس سعيدة، وبمعدة ممتلئة، وبفم ضاحك، فقد نهض يوسف بالليلة على الوجه الذي ينبغي، أي كرم وأي مرح.

أغلق الباب خلف آخر زائر، نظر إلى زوجته بشغف وإثارة، تهيأ ليحتضنها فتفاجأ بها تقفز عليه منقضة، ذراعاها تلتف حول رقبته، رجلاها تلتف حول خصره، شفتاها تعتصر شفتيه، حملها ودار بها في رقصة حب صوفية، أحس بنار الشهوة تتصاعد ألهبتها تحت جمر الحب، نار لن تنطفئ إلا بقذف مائه ممزوجًا بمائها، نال كفايته من المداعبة أحضانًا وتقبيلًا، شعر بالبلل في سرواله، وبالهيئة نفسها، محمولة على خصره، توجه بها ناحية غرفته، حين فاجأته:

- انتظر.

ظن أنها تريد مزيدًا من الشغف والمداعبة، لكن نظرة بعينيها جعلته يستشعر شيئًا آخر..

وقد كان ظنه في محله..

وضع يوسف إصبعه في أذنه ورجّها كأنها تعطلت عن السمع..

هل خرفت أذنه؟

أم أن ما سمعه كان حقيقيًا؟

"يوسف.. لماذا لا تصلي؟"

أنزلها من ركوبتها، نظر إليها بوجوم وعَقَلَ الاستفهام لسانه، انطفأت ناره، واستحال من حرارة الحب إلى برودة الثلج، على حين اكتسى خدّيها بحمرة لا يعرف هو سببها، هل هو حياء.. هل هو غضب.. هل هو شعور أنها سألت سؤالا لم تتوقع حتى هي أن تسأله ولو حتى في حُلم؟؟

صمته أكسبها شجاعة، وفرصة أن تستكمل محاضرة لا تليق أن تخرج من مثلها لمثله.

- حبيبي، أنت أفضل الرجال..

لكن..

ليتك تصلي..

سأذهب لأتوضأ وأصلي العشاء، وسأدعو لك ربي أن يهديك.

على أعتاب غرفة نومهما، أمام عينيه الذاهلة، وعقله المشتت، تركته وذهبت.

ظل واجمًا مصدومًا، لا يفارق مكانه ولا يأتي بحركة تنم عن حياة في هذا الجسد..

دقائق مضت حين عادت بقطرات ماء تنساب من خصلاتها، ترتدي لباس الصلاة بكسرته الأولى، جديد تمامًا، لم تلبسه ولو لمرة.

دخلت غرفتها تبحث عن سجادة الصلاة، لا تذكر أين وضعتها قبل خمس سنوات يوم فرشت الشقة قبل الزفاف بيومين.

برأسه المتأرج فوق عنقه، ترنّح يوسف في خطوات توجه بها إلى المكتب، جلس إلى مكتبه، يشعر برأسه ثقيلاً، دائخًا، كمن تلقى على مؤخرة رأسه ضربة غادرة بحديدة صلبة ثقيلة، ارتفق سطح المكتب ووضع رأسه بين كفيه.

هل هذا حلم؟

من هذه التي بالخارج؟

من تلك الواعظة؟

بنت النبي قررت أخيرًا أن تصلي..

من أول يوم تصلين فيه فرضًا تعامليني معاملة الفاجرين؟..

كيف سيكون الحال لو انتظمتِ على الصلاة أسبوعًا؟ هل ستقيمين عليّ حدًا؟

من أنفه شهق شهيقًا طويلًا حارًا حتى امتلأ صدره، حبسه بصدره حينًا، قبل أن يطلق زفيرًا مُرًا قويًا للدرجة التي أحدث فيها صوتًا كالفحيح، لمح ظلها يقترب، رآها تدخل عليه متوترة.

"ماذا؟ هل ستطلبين الطلاق من زوجك المرتد؟"

- يوسف!

لم يرد.

طأطأت رأسها إلى الأرض، تعتصر أصابع كفيها ببعضها من التوتر، ثم بصوت مهزوز مُستحٍ:

- يو... سف!..

أين اتجاه القبلة؟

-13-

أول يوم جمعة بالعام الدراسي الجديد..

رن هاتف شيماء..

غادة..

- شيماااااء.

- ماذا بك يا مخبولة.

- لن تصدقي.

- لا بل سأصدق.

- إسلام.

- أستغفر الله العظيم! ماله؟

- سيعود بعد أسبوع إلى القاهرة، سنتقابل، سنتزووووج وسأسافر معه.

- هه؟

- ألم أقل لك أنك ظلمتيه.

- أعشم في ذلك، على كلٍ، ربنا يتمم لك بالخير، وأهلك؟

- فليخبطوا رأسهم بالحائط، يوافقون أو يرفضون، سأتزوجه وسأساااااافر.

* * *

أخرجت شيماء هاتفها لتتصل بيوسف لتُذكّره بأنها ستزور شارع المعز بصحبة هدير، ولتطمئن عليه، فهو ككثير من الأيام يعمل بأيام الإجازات، لكنها المرة الأولى التي يغادر فيها الشقة دون أن يودّعها بقبلة وحضن.

أهمل يوسف اتصالها..

هذه المرة لم يجد بنفسه طاقة أن يتحدث إليها، تلك مرته الأولي التي تصيب نفسه الحزن حين يرى هاتفه يهتز باتصالها، أعاد اتصالها إلى نفسه وخزة حزن كان قد تناساها بالانشغال في متابعة أعماله، وإن كان يتابعها بلب شارد، ونفس غير مكترثة.

رن هاتفه..

أهمله..

رسالة: "أوحشتني.. كيف حال حبيبي؟"..

مسح الرسالة، أغلق هاتفه هاربًا من أي اتصال، أراد أن ينعزل داخل قوقعة حيرته.

حك جبهته، تنهد بأسى، شرد بعينيه في الأرض، أشعل سيجارة من نار قلبه، ونفخ دخانًا أسود من بين ضلوعه.

لأيام لا يدور الحوار بينهما إلا عن صلاة ومواعظ ولذة المشاعر بالقرب من الله..

لكن السيئ فيها أن حبها لتلك النزعة سلبت على غفلة بساط الألفة من تحت قدميهما حتى أوشكا على سقوط مؤلم قبيح..

أولته ظهرها في خطواتها الجديدة نحو السماء.. فكلما اقتربت من السماء ابتعدت بنفس القدر عنه..

أوليس التقرب إلى زوجها فضيلة؟؟

أوليس التودد لزوجها مرتبة تلي التقرب لربها؟؟

أهملت كفّته على حساب الأخرى، ولم توازن بين الكفتين..

لأيام مضت استحالت نار حبها إلى شيء من الرماد، على أمل نسمة باردة منها تعيد النار إلى مجدها ليستلذ من جديد بلسعتها في قلبه.

ألم يأن لتلك السحابة الداكنة أن تمطر غيثًا؟

خيم الظلام عليهما، في حين أن المصباح على بعد سنتيمترات، ينتظر ضغطة بسيطة على زره بطرف أنملتها ليعود إلى النور..

ليعود إلى الحياة..

* * *

كانتا _ شماء وهدير_ قد وصلتا بعد جولة طويلة سيرًا على الأقدام إلى المشهد الحسيني، فجلستا هناك هنيهة يريحان الأقدام ويتناولان شيئًا رطبًا باردًا.

بدأت جولتهما من شارع المعز لدين الله الفاطمي وما حوله من أزقة وشوارع، لم تكن جولة ممتعة كما توقعتا وخططتا، وغير أنهما لم يجدا ما يجذب النقود من جيبهما ليشترياه، فالجو حار، والزحام خانق، والأجساد تكدست وتلاحمت. ندت عن هدير نظرة مندهشة وأشارت إلى شيماء إلى هذه الأجساد المتلاصقة جنبًا لجنب وهي تحمل أجناسًا وأعراقًا وأديانًا مختلفة، فمالت شيماء على أذنها:

- لا تبالغي هكذا في الاندهاش.. فماذا ستفعلين إذن لو علمت أن ابن عم لك وسط هذه الأجناس؟

وقبل أن تتساءل هدير، أردفت شيماء:

- فربما لو أجريت تحليل الـ DNA لظهر لك قريب منهم يلتقي معك عند أحد الأجداد الأوائل.

ثم مرت بجانبها قوقازية قصيرة عريضة الردف، فأشارت لها شيماء وهي تضاحكها:

- مثل هذه مثلًا.

توقفتا كثيرًا لالتقاط بعض الصور لهما في أحضان التراث الإسلامي والمباني الأثرية التي تزداد حلاوة كلما مر عليها الزمن وكأنها لا تخضع لقوانينه، غير أن الصور في وضح النهار ووسط هذا الزحام لم تكن جميلة أو مرضية، مرّتا على المحلات وتوقفتا وقفات متقطعات أمام بعضها، وما تلبث إحداهما تعجب بشيء إلا وتعرض عن شرائه حين تسأل عن ثمنه. فقررت شيماء ووافقتها هدير على أن الزيارة القادمة يجب أن تكون ليلًا وبعيدة عن يوم الجمعة وأيام الإجازات، حينها يمكن لهما التنزه بحرية، والتقاط الصور بتلك الشوارع التي رسمتها هدير في مخيلتها، فقد كانت تتوق من كل قلبها لزيارة تلك الشوارع والحارات والأزقة والمدقّات النجيبية، تلك التي ذكرها نجيب محفوظ في رواياته، تلك التي تقلبت بين أروقتها وبيوتها أيامًا وأيامًا، ينقلها نجيب محفوظ من زقاق إلى عطفة، ومن عطفة إلى شارع وهي متوسدة وسادتها ومستلقية على سريرها كل ما تفعله هو أن تداعب بأناملها طرف صفحات رواياته.

توقفتا أمام مسجد الإمام الحسين، وجلستا على أحد المقاهي بجواره، الحوش مزدحمًا بالمريدين والزائرين والسائحين، ومزدحم بالمقيمين الدائمين طالبي الصدقة المتوزعين بحرم المسجد، منهم من افترش الطوار، ومنهم من افترش الحديقة المعشوشبة أمام المسجد ومنهم من تقلب بين هذا وذاك.

عجيب أمر هذا الشهيد، كيف اجتمعت على عتبته ثلاثة جلابيب وثلاث عمائم، السني.. والصوفي.. والشيعي؟!

حاولت هدير أن تلتقط صورة تجمعهما مع المسجد، لكن أشعة الشمس عاكستها وأبت أن تجود عليها بهذه الصورة، صورة لا تصلح أن تضعها هدير في يومياتها على الفيسبوك وتعنون لها:

" A7LA YOM DA WLA A..

El Hussin Mosque..

Amazing Day with My Lovely Sister

SHIMOOO ♥♥.."

* * *

أشارت هدير إلى محل قريب يعرض بعض المشغولات ذات الطراز الإسلامي.

- سأنظر هناك عن شيء مناسب، وإن لم أجد فسأعود.

- .Take Care Baby "قالتها شيماء مازحةً".

لم تلبث هدير تغادر مكانها حتى وجدته شيماء قبالتها، بلا استئذان جلس مكان هدير وهو يبتسم حين قال:

- تأخرتِ عن موعدنا.

ابتلعت شيماء ريقها، واتسعت عيناها دهشة

- أنت؟!!

- تذكرينني؟.. بداية جيدة يا عاتكة.

- عاتكة؟

هنا تذكرت شيماء تلك الكلمة المبتورة التي سمعتها منه حين كادت أن تدهسه بسيارتها يوم كانت بنقابة السادة الأشراف، لقد كان يناديها بعاتكة، أفاقت من ذهولها:

- يبدو أنك مخطئ يا حضرة.

- أنا لا أخطئ أبدًا يا عاتكة.

- اسمي شيـ.. اسمي ليس عاتكة.

- أعلم أن شيماء هو الاسم الذي سماك به أبواك، تستطيعين أن تقولي إن هذا هو اسمك المادي، لكن اسمك عندنا هو عاتكة.

- كـ.. يف.. كيف عرفت اسمي؟.. عندكم؟ من أنتم؟

- لا وقت للدهشة يا عاتكة، أجلها فيما بعد، فلقد حضّرت لك برنامجًا مدهشًا، أتمنى أن يعجبك.

شعرت بقلق غريب يجتاحها، وبعصبية قالت:

- من فضلك غادر فورًا وإلا طلبت لك الشرطة.

- لن تفعلي.

نظرت إليه بتحدٍ وهي تميل برأسها للوراء في تعجب.

- نعم لن تفعلي، أنا هنا لمساعدتك، وبالمناسبة سنتقابل مرة أخرى.

لملمت أشياءها وبحثت عن هاتفها لتتصل بهدير حتى يغادرا، وهمّت لتقوم.

- اجلسي.

كانت لهجته آمرة، وصوته رخيم قوي، ونبرته جادة لم تستطع معها شيماء إلا أن ترضخ لأمره، فبدون أن تشعر جلست متصلبة في مكانها، في حين ابتسم لها هو في هدوء عجيب، وهو يسألها:

- أتذكرين أين تقابلنا أول مرة؟

صامتة.. شاخصة.. ذاهلة.

فرفع حاجبه ومال برأسه نحوها كأنه يستجديها لتجيب، فابتلعت ريقها ولم تملك من أمرها شيئًا أمام نظرته وإصراره إلا أن تجيب:

- شارع الفواطم.

- بداية جيدة.

- أتعرفين كم عدد الفواطم اللاتي ولدن النبي؟

صمتت، فنظر إليها نظرة كالتي سبقتها، فزاد توترها، أرادت أن تجيب لكن جفاف حلقها لم يساعدها، فاكتفت بأن تهز رأسها يمنة ويسرة أن لا أعرف. فرفع كفه ووسع بين أصابعه الخمسة وأخذ يعُد عليها.

- خمسة، فاطمة من قريش.. وفاطمتان من قيس.. وأخرتان من اليمن.

استحوذ على كامل انتباهها، تشعر بقلق عظيم، لكن سؤاله أثار فيها الشغف بموضوع بحثها عن نسب النبي، فشعرت بشيء من الاهتمام شجعها على الاستماع لما يقوله.

- هل تعرفين يا عاتكة كم عدد العواتك اللاتي ولدن النبي؟

هذه المرة لم تعترض على مخاطبتها باسم عاتكة، وخُيّل إليها السبب الذي جعله يناديها بعاتكة، تبدهت بأنه يشير بأن "العاتكة" رمز لكونها

مصرية من نسل النبي ولكون النبي من نسل المصريين، وأجابت بصوت سلس، وكأنهما صارا صديقين:

- عواتك جمع عاتكة؟

حافظ على ابتسامته وأومأ برأسه بالإيجاب. فابتسمت بفرح تلميذ لقي استحسان معلمه قبل أن تجيب بحماس:

- لا أعرف.

- اثنى عشرة.

ثم صمت بدهاء وانتظر ليرى أثر كلامه عليها، فما وجدها إلا متفاعلة متحمسة حين سألته بلهفة وشغف:

- ومن هن؟

فرح لسؤالها، على الرغم من أنه توقعه، فأجابها:

- من قريش ثنتان.. ومن بني يخلد بن النضر بن كنانة واحدة.. ومن بنى سليم ثلاث.. ومن عدوان ثنتان.. وأسدية.. وهذلية.. وقضاعية.. وأزدية.

تذكّري ما قلته جيدًا، كان هذا درسك الأول يا عاتكة.

فتحت حقيبتها تبحث عن ورقة وقلم لتسجل ما قاله قبل أن تنساه، استخرجت الورق والقلم ثم نظرت إليه وهي تقول:

- أخبرني بأسمائهن..

لم تجد أحدًا جالسًا، نظرت كالملهوفة في كل اتجاه، لكن.. لا شيء، أين ذهب؟ هل تبخر؟، وقفت لتتمكن من رؤية واضحة، ومسحت بعينيها الرءوس وسط الزحام.. فلم تجد أحدًا.

سقطت في بئر الحيرة، أين ذهب؟.. وكيف اختفى بهذه السرعة؟.. من يكون ومن أين أتي وكيف عرف اسمها؟.. بل كيف عرف مكانها؟.. وما أمر ذاك الموعد المكتوب لهما اللقاء فيه؟.. لماذا اختار الحديث عن شيء يمس بحثها؟ هل هي صدفة؟ أم أنه يعلم بشأن بحثها كما عرف اسمها دون أن تخبره؟..

تذكرت فجأة قوله: "وبالمناسبة سنتقابل مرة أخرى"..

بعد كل ما رأت منه، شعرت يقينًا بأن ثمة موعد آخر سيجمعهما.

- كيف ومتى سنتقابل؟

- ستقابلين من؟.

كان هذا صوت هدير الجالسة على الكرسي أمامها.

❋ ❋ ❋

-14-

عادت شيماء إلى شقتها، تمشي بإعياء، خطواتها غير منتظمة بسبب ألم ينبض بأوصالها، توزّع الألم بين ساقيها وظهرها حتى أنها لا تعرف حقيقةً من أين يبدأ، كان يوم مرهق حقًا بخلاف أنه غير مثمر، ترنّحت حتى دخلت غرفتها، لم تجد يوسف، تخففت من حقيبتها ثم توجهت إلى غرفة المكتب، وجدت يوسف جالسًا على كرسيه الهزاز يحركه بانتظام بطيء واضعًا قدمًا فوق قدم ويسند عليها كفيه مشبوكي الأصابع، رأسه محنية بمرارة، وينظر أمامه في لا شيء ويبدو على هيأته الشرود، فشعرت بأن يومًا عصيبًا متعبًا بالعمل قد مرّ به، لم يكن شاردًا، لم يكن متعبًا من العمل، بل كان كمن يكظم غيظًا ويدفع غضبًا.

- السلام عليكم.

رفع إليها طرفه دون رأسه، وقع تلك الكلمة غريب جدًا على أذنيه، شأنه شأن كثير من أفعالها الغريبة تلك الأيام، أحس طباعها مستهجنة عما يعرفه منها كل تلك السنوات، لم تكن شيماء كما عرفها، ثمة فجوة تتسع بينهما، لم يكن مطمئنًا لتلك اللفتة في سلوكها.

- ما بك يا يوسف؟

ظل ناظرًا إليها بتلك النظرة المبهمة، للحظات وهو يصر على أسنانه، قاوم الكلمات على طرف لسانه لئلا تنفلت منه فيثور غاضبًا واكتفى بجملة قصيرة:

- أين كنت كل هذا الوقت؟

- كنت حيث أخبرتك.

في دليل الخالة سميرة للعلاقات الزوجية القصيرة: "كنت حيث أخبرتك" هي الجملة قبل الأخيرة قبل أن يفكر الزوج في طلاقك.

دوّت كلماتها في أذنيه، احمر وجهه وزوى ما بين حاجبيه، لاحظت انفعاله، وتنبهت لسوء اختيارها للكلمات، فأرادت أن تتدارك موقفها حين أردفت:

- آسفة حبيبي لأنني تأخرت، فقد عرجت مع هدير لأطمئن على جدتها، بخلاف أن اليوم كان مزدحمًا مما استنزف مني وقت الزيارة.

- أي زيارة تعنين؟

- جدي.

- جدك؟!!

سألها يوسف وهو يضيق عينيه، لم يفهم من هو جدها التي زارته، لم تخبره أنها ستزور جدها

- نعم.. جدي الحسين.

- الحسين من؟

- الإمام الحسين يا يوسف.

اعتدل في جلسته، ووضع كلتي قدميه على الأرض، ومال بظهره إلى الخلف باستنكار..

"جدها الحسين؟.. أهلًا"..

ضرب ذراعي الكرسي بكفيه وهمَّ واقفًا، ثم مر بجانبها وتجاوزها دون أن ينظر إليها، لم تعرف هي ماذا يفعل، لكنها تبدهت ذلك حين سمعت صوت

صلصلة المفاتيح بين يديه، لقد همّ أن يغادر الشقة، توترت الأجواء بينهما، وصار الحديث ثقيلًا ملولًا، تقدم يوسف بخطوات واسعة سريعة نحو باب الشقة كأنه لا يطيق المكوث بها، وفتح الباب بعصبية، ثم نظر إليها وقال:

- في المرة القادمة يا حفيدة الأنبياء أخبري جدك بأن لك رجلًا وبيتًا.

وقبل أن يغلق الباب وراءه نظر إليها نظرة غاضبة وهو يردف:

- السلام عليكم.

❋ ❋ ❋

-15-

السبت 7:45 مساءً

اجتاز التاكسي كوبري قصر النيل في اتجاه دار الأوبرا، ثم مال إلى اليسار وتوقف بجوار سور حديقة الحرية، في حين أخرجت الراكبة هاتفها وفتحت رسائلها لتتأمل تلك الرسالة التي تأمّلتها مرات ومرات حتي حفظت كل حرف فيها:

"الساعة الثامنة..

3ش مجلس الثورة بالزمالك.. مطعم..LE DECK

بالمناسبة..

سأرتدي أجمل بدلة عندي لأكون لائقًا بالجلوس أمام جمالك..

مالك"..

تلك الجملة الأخيرة كانت كفيلة بما يكفي لتستفز في غادة كل غيرتها الأنثوية، مضت ليلتها تقلب بين فساتينها، انتقت أحلاها، ونامت، لم تلبث هنيهة حتى انتفضت من على سريرها، وأضاءت النور، وقامت مرة أخرى إلى فساتينها، ترتديها كلها وتفاضل وتنتقي من بينها، تلبس هذا.. وتخلع ذاك.. وتعود لتلبس هذا مرة أخرى، هذا أجمل.. لا لا هذا جذاب أكثر.. ولكن هذا يناسبني أكثر.. لكني مثيرة في هذا.

أخرجت علبة المساحيق خاصتها، ونظرت في مرآتها وعالجت تبرجها وزينتها حتى رضيت عنها، سمعت تنهيدة متبرمة خرجت من أنف سائق التاكسي، فنظرت إلى ساعتها.

الساعة 8:10 م

أفكار كثيرة تدور برأسها، هل يجب أن تنتظر أكثر؟.. هل يا ترى ينتظرها الآن أم أنه سيتأخر؟.. هل سيتعمد التأخير هو الآخر ليظهر أنه الطرف الأكثر قيمة ودلالًا؟.. هل تنتظره حتى يتصل بها؟.. ماذا لو ملّ من الانتظار وظن أنها لن تأتي وغادر؟.. فهو حتى لم يهتم بأن يتلقى منها تأكيدًا بأنها موافقة، أو بأنها ستحضر.

الساعة 8:14 م

كانت عازمة النية على أن تتأخر عليه نصف ساعة كاملة، لكنه هكذا دائمًا حال المنتظر، يتآكل صبره بنار الانتظار، هذا غير شيء بداخلها يحذرها من ضياع هذه الفرصة، لأن مثل هذا الوسيم لا يصح التأخر على ميعاد هو طلبه، مضت دقائقها التالية مؤلمة كأنها تجلس على الشوك.. صارت لا تطيق الانتظار أكثر من هذا.

الساعة 8:19 م

- تحرك يا أسطى.

* * *

توقف التاكسي أمام فندق نوفوتيل، نزلت غادة بعد أن أعطت السائق أجرته، لم تكن بحاجة للسؤال عن المطعم إذ إنها وجدته قبالتها، لاحظت أن عينًا تراقبها، من هيئته يبدو أنه أحد العاملين بالمكان، تقدمت نحو المطعم وهي ترفل في فستان يضم خصرها ويبرز ردفها، تجسد عليها مبرزًا مفاتنها بإصرار، وجعل من جسدها النحيف جسدًا أوروبيًا رشيقًا، اعتلت الجسر المفضي إلى المطعم بخطوات هادئة، وحينما عبرت من باب المطعم وجدت

تلك الابتسامة، ابتسامة صاحب العين المراقبة، حياها بإيماءة من رأسه، فردت تحيته بابتسامة أرستقراطية.

- آنسة غادة!

- نعم أنا.

- تفضلي بالأعلى، السيد مالك بانتظارك.

- مـ. تى وصل؟

- تقريبًا الساعة 7:30.

"إلى هذا الحد متلهف ليراني؟ .. من السابعة والنصف والساعة الآن قاربت على الثامنة والنصف.. يبدو أنني سوّيته على نار هادئة"

سألت غادة عن الحمام، فأشار لها، دخلت تلقي نظرة على زينتها، نظرة بزهو وخيلاء إلى المرآة، ربتت على خصلات شعرها تهندمها، ولفت حول نفسها لتراقب هندامها، فأعجبها ما رأته بالمرآة من نفسها، ثم أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تخرج من الحمام، وتصعد إلى منضدة أشار إليها العامل، لكن أحدًا لم يكن موجودًا، فنظرت إلى العامل باستفهام، فأوضح لها أن السيد مالك ذهب للحمام، احتارت، هل تجلس وتنتظره؟ أم تظل واقفة وتتظاهر بالانشغال في تأمل جمال النيل؟، شعرت بالإحراج والتوتر كأن أعين الناس تراقبها، ففضلت أن تجلس، توجهت إلى المنضدة و...

شخصٌ ما سحب لها الكرسي لتجلس..

علمت بأنه هو، تمالكت نفسها وتمهلت قبل أن تنظر إليه من باب التماسك والهدوء، أرادت أن تظهر بمظهر المتماسكة الراسية، وببطء شديد

يليق بملكة بريطانيا التفتت وراءها لتحيي مالك، فوجدت أن صاحب اليد.. العامل.. شعرت كمن تلقى صفعة على قفاه.

- هل وصلت؟. "سأل مالك وهو يدلف من باب المطعم مسرعًا".

- نعم وصلت يا سيد مالك.

- وماذا أخبرتها؟

- كما اتفقنا.. السيد مالك بالحمام. "قالها العامل بابتسامة لطيفة وهو يغمز بعينيه".

فابتسم مالك، وأنقده خمسين جنيهًا وهو يقول:

- شكرًا على هذه الكذبة.

كانت جالسة تتفحص المكان، كل شيء كان أنيقًا فارهًا، والنيل قد أشاع في الجو نسيمًا باردًا محملًا بتلك الرائحة الساكرة لمياهه.

أخرجت هاتفها استعدادًا لتلتقط خِفية بعض الصور من أجل الفيسبوك، قطع تأملها تلك الوردة البيضاء الكبيرة الممدودة لها من الخلف، وبدون أن تنظر هذه المرة توقعت بأنه طقس للترحاب من المطعم، لن تسمح لنفسها بأن تقع في هذا الفخ مرتين، فقد لاحظت ثمة وجود لهذه الورود البيضاء على بعض المناضد المجاورة، وأرادت أن تنتقم لكبريائها، فبدون أن تنظر، وبكبرياء السفيرة عزيزة مدت يدها ببطء لتتناولها، حين تفاجأت بالوردة تغوص بين خصلاتها.

دون أن ينبث ببنت شفاه جلس مالك أمامها بنظرته الواثقة وابتسامته الجذابة، ثم لم يلبث أن خطف الهاتف من كفها، تركته يفعل، ظنت أنه سيأتي بغريب كما فعل يوم الحفلة، فاعتدلت في جلستها وتأهبت كأنها

سترى عرض الساحر. ما فعله هذه المرة كان غريبًا أيضًا، بل أنه أغرب مما فعل سابقًا، حيث أشار بيده إلى الجرسون فأتاه على عجل، وأخرج هاتفه من سترته ودفع بالهاتفين إلى الجرسون وطلب منه أن يحتفظ بهما على أن يحضرهما حين يخبره أنهما على وشك المغادرة. نظر إليها فوجدها مأخوذة بما فعل، فابتسم بسعة أقرب إلى الضحك ثم أوضح:

- اعذريني، لن أسمح لشيء مهما كان أن يسرق الوقت منا.

خففت كلمته من انزعاجها، ورأت أن ذلك سببًا لطيفًا منه أن يكون حريصًا إلى هذا الحد على قضاء الوقت معها منفردين.

كانت قبل أن يظهر تتأمل جمال المنظر حولها، لكن شيئًا في هذه الليلة لم يضاه أبهته وأناقته.. ووسامته.

❋ ❋ ❋

-16-

صرخت إطارات السيارة حين ضغط يونس مكابحها لتتوقف بعد سرعة، تحرك سريعًا ورَصَعَ باب سيارته بعنف قبل أن يدلف إلى مدخل العمارة، قام برن الجرس مرارًا وطرق الباب بعصبية، فتح النقيب كريم إيهاب الباب، والذي يعمل معه بقسم الدعم الفني بغرفة العمليات، ليجده يونس عاري الجسد إلا من منشفة يلف بها وسطه، ممسكًا بزجاجة بيرة، وسيجارة تلفظ أنفاسها الأخيرة بين شفتيه، دلف يونس من الباب بعصبية ومن فرط عصبيته نسي أن يلقي عليه التحية:

- أين هو؟

- حبيب قلبي، أنت أيضًا أوحشتني. "قالها كريم مستهزئًا، وهو يغلق الباب بعقب قدمه".

- أنجز يا كريم، أين ابن الكلب؟

- هنا.. هنا في القاهرة، تعال. "قالها وهو يشير إليه برأسه".

دخلا معًا، قابلتهما مخلّفات الحرب العالمية الثانية، جلسا على كنبة الأنتريه فتطاير التراب منها، ثم أزاح كريم شطيرة بيتزا من على اللابتوب، وولج إلى برنامج احترافي للتجسس، وأشار إلى علامة تحديد موقع على خريطة لشوارع القاهرة، وقال بعد أن أشعل سيجارة له وناول يونس أخرى:

- كانت فكرة ذكية حين تجسسنا على هاتف الفتاة التي يحوم حولها، استطعت بعدها بكل سهولة أن أصل إلى هاتفه وأحصل علي معلوماته، وأتجسس على مكالماته وبالطبع أحدد موقعه وخط سير هاتفه.

- متأكد من أنه هو؟

- عيب.

قالها كريم وهو يدير شاشة اللاب توب ناحية يونس معروض عليه صورته في النصف الأيسر من الشاشة، وقائمة بكل المعلومات الخاصة به في النصف الآخر.

راقب يونس صورته باهتمام، وهو يقرأ بياناته والمعلومات الخاصة به.. تمتم قليلًا بشفتيه قبل أن يقول:

- ابن ناس!

- كلهم كذا يا صديقي، أولاد ناس، تافهين، صديق مات بجرعة زائدة فقرر أن يتوب، سيارة رفض أبوه تغييرها له بأحدث موديل، حبيبة خانته مع صديقه المقرب، أمه نامت مع البواب، أزمة نفسية تصيب قلوبهم الحنونة يتحولون بعدها لأولاد كلب.

- أريد نسخة كاملة عن خط سيره وتسجيلًا لمكالماته منذ أسبوعين مضيا قبل استشهاد خالد، ولا تغفل أي تفاصيل، أريد أن أضع يدي عليه اليوم قبل غد، فاهم يا كريم؟

- ولماذا ننتظر؟ نستطيع بكل سهولة أن نهجم على وكرهم، فما فائدته؟

نفخ يونس دخانه الكثيف، ونظر إلى كريم وقال:

- لا أريده هو، هذا التافه مجرد وسيلة للوصول إلى الرأس المدبرة للعملية الإرهابية.

- لا أظنه يفيد.

-... !!!

- ابن الكلب كل مكالماته مع بنات، يبدو أنه مسئول القسم الترفيهي للجماعة، خسارة أنه يعمل مع الجهة الخطأ، يا سلام يا يونس! تعجبني كثيرًا فكرة نكاح الجهاد، أليست الشرطة أولى بهذه الفكرة؟

- نكاح الجهاد؟ أخشى عليك وأنت بهذا اللباس.

وقبض يونس على ذراعه يجذبه بعنف:

- ركز يا ابن الكلب، تنقضي مهمتنا ثم أفعل ما بدا لك.

- خليك أنت بحالك، واحذر أن تتبعك الإدارة وترصد نشاطك غير الرسمي، وتخفّى عن عين العميد أبو النجا، فهو ثعلب ماكر.

- لماذا جئتك إذن؟ كررررريم! أفق، لن أسمح لحق خالد بأن يضيع هدرًا.

تحجرت ملامح كريم أمام وجه يونس الممتعض، ابتلع ريقه بقلق:

- لا تقلق.

ترك يونس ذراعه، ثم هرس سيجارته بالطفاية قبل أن يهم ليغادر:

- أنا لا أقلق إلا من هذه الكلمة.

❋ ❋ ❋

-17-

الرطوبة خانقة لزجة.. الثرثرة داخل مكتب هيئة التدريس لم تعد محتملة، الكل يجلس حول شيماء يثرثر فيما بدا لها تافه الأمور، ليّها مشغول بمأساة تعيشها مع حبيبها، شعرت أنها تدافع صرخة عاتية محتبسة بصدرها:

"ارحمووووووني.."

لم يكن هو يوسف، فقد بدا لها أنه تغير بما يصيب النفس بالحيرة، ويُحمّل العقل بالأرق، صار لا يطيق المكوث بالبيت، فلا مائدة طعام تجمعهما، ولا حديث يجذبهما، ولا نقاش يقرب المسافات بينهما، شعرت بأن ثمة فجوة تتسع، وستبتلع معها ست سنوات من الحب، أركان البيت الهادئ تهدّمت وتصدّعت جدرانه وأوشك سقفه أن يخر فوق رأسيهما ليدفن تحت أنقاضه قصة حبهما في ضريح كتب عليه: "في يوم من الأيام كان هنا عاشقان"، لا تدري شيماء كيف تفاقمت الأمور بينهما إلى هذا الحد، ولا تدري كيف ستنتهي؟

لازالت في حيرة ما الذي فعلته لتستأهل عليه هذه الجفوة وذاك الإهمال؟..

حاولت أن تسبر أغواره، وأن تكشف سريرة نفسه، لكن لا جدوى، انطوى يوسف على نفسه، ولفظ الحياة معها، لا مائدة تقربهما، واجهته فلم يلتفت، سألته فلم يرد جوابًا، ضاق صدرها وانفعلت من جراء تلك الحياة التي تبغض أن يعيشا فيها، فاحتدت عليه:

- مالك؟ لماذا تغيرت هكذا؟

فصرخ فيها:

- أنا لم أتغير.. بل أنت من تغير، لا أنت شيماء التي أعرفها، ولا تلك حياتنا، لا أدري إلى متى ستظلين مرتدية ثوب رابعة العدوية؟!!

انتشلها من وسط همومها طرق عامل القاعة الباب ليعلمها بموعد محاضرتها، فأومأت له برأسها، واحتضنت اللاب توب وبعض الأوراق، وتوجهت صوب قاعة المحاضرات.

* * *

قاعة المحاضرات..

بعد أن حيّت الحضور المتكاثر هذه المرة، لمست في أعينهم تحفزًا لسماعها، فاستبشرت، وفركت كفيها ببعضهما قبل أن تقول:

- يبدو أنكم ستهرونني فعلًا، هل حضَّرتم موضوع المحاضرة اليوم؟

تلقت بعض الإيماءات والهمهمات القليلة بالإيجاب.

- تمام، فلنبدأ..

تعرفنا في المحاضرة السابقة على أول محطة مصرية في نسب النبي محمد، واليوم سنمر على المحطة الثانية بين المصريين القدماء والنبي محمد. كلنا نعرف أن أركان العقيدة الإسلامية خمسة، فما أركان العقيدة الإدريسية المصرية؟

تلقت بعض الإجابات، بعضها خطأ، وبعضها ناقص، وبعضها اقترب من الصحة.

- تمام.. في المرة القادمة أريد أن أرى نتائج أفضل.

ثم تمشت بين الصفوف، وهي تقول:

- صلوا على النبي.

كان الصوت جماعيًا هذه المرة.

- عليه الصلاة والسلام.

وانتهت الطلبة، واستعدوا للاستمتاع بالمحاضرة.

* * *

الديانة الإدريسية الحنيفية..

الصابئة..

حنيف كلمة مصرية قديمة وكانت تنطق "حنف"، والصابئة كلمة مصرية قديمة تنطق "سابي" ومعناها الحكيم، وهم الحكماء الذين غادروا مصر لنشر الدعوة بشبه الجزيرة وما بين النهرين، وما وراؤها إلى بلاد الهند أيام إدريس عليه السلام وأيام أخناتون.

وكلمة دين هي كلمة مصرية قديمة من ضمن آلاف الكلمات المصرية القديمة التي دخلت في اللغة العربية الحالية، وهي مكونة من مقطعين "دي – ن"، "دي" بالمصرية القديمة تعني خمسة.. والـ "ن" تضاف لتعني أنها شعيرة دينية، فيصير معناها "الشعيرة الدينية الخماسية".

وأركان العقيدة الإسلامية خمسة: "الشهادة، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج"..

وأركان العقيدة الإدريسية خمسة: "الشهادة، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج"..

- تقصدين بأنها هي هي عقيدة الإسلام؟

- تقريبًا، فالأصل في جميع الأديان أنها من منبع واحد، وجميعها تشترك في العقيدة ومعظم الشعائر الرئيسية، لاسيما العقيدة المصرية القديمة وعقيدة الإسلام، فالمنطق يحتم بأن أول رسالة على الإطلاق و آخر رسالة على الإطلاق يجب أن تكون من القوة بمكان، البداية يجب أن تكون قوية لتأسس لما سيأتي بعدها، والأخيرة كذلك لأنها الباقية حتي آخر الزمان، وسنعرف فيما سيأتي من محاضرات مدى التشابه بين العقيدتين وبين إدريس ومحمد عليهما السلام.

* * *

الشهادة..

دعوة كل الأنبياء هي "لا إله إلا الله"، وبما أن إدريس عليه السلام أول نبي ينزل عليه الوحي، وبما أن المصريين أول أمة أرسل لها نبي وصحف مقدسة، فبالتالي هم أول أمة قالت لا إله إلا الله.

ثم قامت بتشغيل البروجيكتور، وعرضت صورة لإحدى الجداريات، وعلقت عليها:

نجد هنا على هذه الجدارية بهرم أوناس بالجيزة جملة مكتوبة بالكتابة الهيروغليفية.

ثم عرضت شيماء الصورة، وقامت بقراءتها:

- "ينو كنيتر.. واع واع.. خبر دس إف.. نن سنو إف"

والتي تعني:

"أنا الإله.. أحد أحد.. موجد نفسي بنفسي.. ليس مثلي أحد"..

ألا تذكركم تلك الكلمات بشيء؟

- بـ "قل هو الله أحد".

- بالضبط.

ثم عرضت صورة أخرى:

- ونجد في معبد كوم أمبو جدارية مرسوم عليها عينين وأذنين، ومكتوب تحتها بالهيروغليفية ما معناه بالحرف:

"إنه السميع البصير الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه"

- هكذا بالنص؟

- بالنص.

* * *

أما عن الصلاة..

في رحلة الإسراء، في بيت المقدس، وفي المسجد الأقصى، صلى جميع الأنبياء خلف رسول الله محمد، ما لم تكن هيئة الصلاة وأركانها معروفة من قبل؛ إذن كيف صلى رسول الله والأنبياء؟! كيف عرف هيئة الصلاة وهو لم يُعرَج به إلى السماء- ولم تفرض عليه الصلاة بَعد؟

- فقد كان المصريون القدماء يقيمون الصلاة لأوقات معلومة خمس مرات باليوم والليلة، ولا تقام الصلاة إلا بشروط، منها: الطهارة والوضوء وستر العورة واستقبال القبلة، والأذان.

ثم عرضت صورة أخرى:

- وهنا نجد أحد المصريين القدماء يؤذن للصلاة، وهو كما ترون بالصورة يرفع كفيه عند أذنيه شأنه شأن المؤذنين بالمساجد هذه الأيام.

وعرضت صورة أخرى للملك مينا، وخلفه تلميذ يحمل أشياء بيديه.

- وهذه هي صورة على جدارية للملك مينا، تعرفونه؟

- موحد القطرين؟

- هو بعينه، وهو في هذه الصورة يتوجه إلى مكان مخصوص يدعى الـ "بر.. ضوا"..

و"بر" كلمة مصرية قديمة تعني بيت، و"ضوا" كلمة مصرية قديمة، تعني؟

- الوضوء؟

- أحسنت، واضح جدًا الشبه بين الكلمتين.

يدخل الملك مينا الـ "بر..ضوا"، وخلفه تلميذه يحمل بيد إبريقًا به ماء وباليد الأخرى "تشب تشب"، و"تشب تشب" كلمة مصرية قديمة تعني: "الشبشب"، يرتدي الملك مينا الشبشب ويدخل بيت الوضوء، ويصب له تلميذه الماء فيتوضأ.

ثم عرضت صورة أخرى لأحد المصريين القدماء ساجدًا على جبهته وخلفه المصلين.

- وهنا نجد الـ "إمم"، و"إمم" كلمة مصرية قديمة تعني "إمام"، الغريب أيضًا هو الشبه المثير جدًا بين صلاة المسلمين وصلاة المصريين القدماء، حيث تجد فيها المصلين خلف الإمام متراصين في صفوف مستقيمة، الصف تلو الصف.

عرضت صورة أخرى

- ونجد عند بدء صلاتهم اليدين مرفوعتين إلى مستوى المنكبين أو مستوى الأذنين وهو عند المسلمين ما يسمى بالتكبير.

عرضت صورة أخرى لليد اليمنى موضوعة على اليد اليسرى، وللركوع، وأخرى للسجود، وللجلوس في وضع يشبه وضع التحيات عند المسلمين والقعود الأخير في صلوات اليهود.

- تطابق مثير بين الصلاتين سجلته الجداريات، لكن الأغرب من كل ذلك هو نوع آخر للسجود سجل على بعض الجداريات.

وعرضت شيماء الصورة، لنجد الإمام وخلفه المصلين في صفوف، والجميع ساجد هذه المرة على الأذقان وليس على الجباه.

- كم مرة قرأتم الآية 107 من سورة الإسراء؟ "سألتهم شيماء"

"قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا"

هل لاحظتم قوله تعالي: "إن الذين أوتوا العلم من قبله"؟ من هم؟

تجيب علينا هذه الصورة:

وأشارت على الصورة المعروضة لجمع المصلين الساجدين على أذقانهم.

فلم نعرف أمة سجدت على أذقانها غير الأمة المصرية الموحدة، ويبدو أن هذا السجود كان مرتبطًا بشعيرة معينة، وهي سماع كلام الله يتلى، فهو سجود يشبه السجود عند سماع آية السجدة عند المسلمين.

ولمن يريد أن يستزيد من صور هذه الجداريات والبرديات التي سجلت شعيرة الصلاة عند المصريين القدماء فليستخدم محرك البحث جوجل.

* * *

الصوم..

- هل أثرت انتباهكم؟.. تشعرون إذن بالحيرة مما تسمعون؟.. انتظروا حتى تسمعوا الباقي.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ"

- من الذين من قبلهم؟

الصوم كلمة مصرية قديمة، مكونة من "صاو" والتي تعني.. يمتنع، و"م" تعني.. عن، فكلمة صوم كانت تنطق بالمصرية القديمة هكذا: "صاو م".

وكان المصريون القدماء يصومون ثلاثين يومًا من الفجر إلى الغروب.

وبعد صيام الثلاثين يومًا يأتي عيد يسمى "شيشلام ربه".. أي عيد السلام الكبير، وشلام كما هو مستدل عليه من نطقها دخلت للغة العربية لتصبح سلام ودخلت إلى العبرية لتصبح شالوم.. وربه تعني كبيرًا، ومنها أتى معنى رب البيت ورب الأسرة وربة المنزل.

وكان العيد ثلاثة أيام مثل عيد الفطر عند المسلمين، يتوسطه ليلة تحدد فيها الأعمار والأرزاق، أي ليلة القدر.

* * *

الزكاة..

شعيرة الزكاة في المصرية القديمة كانت تسمى بال "ماعون"، وتلك الكلمة المصرية القديمة من الكلمات التي دخلت للعربية وذكرها القرآن أيضًا.

ففي تفسير ابن كثير، المجلد الرابع، صفحة 555 و556، يفسر قوله تعالى: "وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ"، أي يمنعون الزكاة.

وكلمة "ماعو" بالمصرية القديمة تعني زكاة، وال "ن"؟ ذكرتها في كلمة دين.. هه؟

- تعني شعيرة مصرية.

- أحسنتم.

* * *

الحج..

- "حج" كلمة مصرية قديمة تعني الضوء أو النور.

وكما أن المسلمين يحجون إلى "مكة" ويزورون قبر الرسول في "المدينة"، فقد كان المصريون القدماء أيضًا يرتحلون إلى مكانين.. يا ترى ما هما؟

المكان الأول.....؟؟؟؟

تعلّقت بها أبصار كل الطلبة بشوق وتحفز.

- المكان الأول إلى مكة، إلى الكعبة، الكعبة التي بناها نبي الله إدريس، وأقام قواعدها بعد ذلك نبي الله إبراهيم وولده إسماعيل ابن هاجر المصرية.

وكعبة كلمة مصرية قديمة، وكانت تنطق هكذا "كا با"، ومدينة مكة التي بناها نبي الله إدريس كلمة مصرية قديمة، وكانت تنطق هكذا "با كا"، و"با" تعني.. الروح، "كا".. تعني النفس.

هل لاحظتم أن "كا با" التي تعني الكعبة، هي مقلوب كلمة "با كا" التي تعني مكة؟

ومن الجميل أيضًا أن القرآن حينما ذكر مكة في موضع واحد وحيد، ذكرها باللفظة المصرية القديمة "بكة"، وفي ذلك دلالة وإشارة صريحة لذكر البلد الحرام بالاسم الذي أطلقه المصريون القدماء على هذا البلد حين بناها نبي الله إدريس.

وليس هذا فقط، بل أن كلمة حجاز هي في الأصل كلمتين مصريتين قديمتين، سبق وأن عرفنا بأن حج تعني.. النور، وكلمة "آز" تعني المتجه إلى، فحجاز كلمة مصرية قديمة تعني.. المتجه إلى النور.

المكان الثاني الذي كان يرتحل إليه المصريون القدماء هو أبيدوس، والتي بها كعبة أبيدوس وقبر أوزوريس أي إدريس عليه السلام.

- تقصدين حضرتك أنهم يزورون أبيدوس كما يزور المسلمون المدينة؛ لأن فيها مسجد وقبر النبي إدريس، كما أن مسجد وقبر النبي محمد بالمدينة؟

- بالضبط.

- كأن حضرتك تتكلمين عن الإسلام.

- في الحقيقة أنا أتكلم عن دين الله، الأديان السماوية كلها من نبع واحد، ومتشابهة إلى حد كبير في أصول العقيدة، أما الفروق فنجدها في التشريع.

- وماذا عن الشريعة المصرية القديمة؟ هل بها ما يتشابه مع الشريعة الإسلامية؟

- بالطبع، فمثلاً الشريعة المصرية القديمة حرمت أكل لحم الخنزير، ولحم الميتة، وشرب الخمر، ودعت إلى الجهاد في سبيل الله، وقد تكلمنا عن الشريعة الإدريسية في محاضرة النبي إدريس.

أوشكت المحاضرة على الانتهاء، فسمحت شيماء بالأسئلة.

- لدي سؤال؟

- تفضل.

- هل من المعقول أنه كلما تحدثنا عن شعيرة دينية تخبرينا بأن هذه الكلمة في الأصل كلمة مصرية قديمة؟

- معقول جدًا، فالقرآن الكريم حوى ما يقرب من 57 كلمة مصرية قديمة ذكرنا منها علي سبيل المثال "دين، صوم، ماعون، حج، بكة، صابئين، حنيف"، ومعقول أيضاً إلى الحد الذي استطاع فيه أحمد كمال

باشا جمع أكثر من 13500 كلمة مصرية قديمة دخلت إلى اللغة العربية، وغيرها كثير من الكتب الكبيرة والمراجع عن الكلمات المصرية القديمة التي دخلت إلى اللغة العربية.. الموضوع ليس لغزًا، ولا صعبًا من الأساس، وسيأتي الحديث عن تطور اللغات والألسن حينما نصل إلى محاضرة نبي الله إبراهيم وزوجته السيدة هاجر المصرية.

سائل آخر:

- ذُكرت بكة مرة واحدة في القرآن، فكم مرة ذُكرت مصر؟

- من منكم يجيب؟

تناوبت الإجابات ما بين أربع أو خمس مرات كما هو معروف عند معظم الناس، في حين صدمت الجميع إجابة شيماء على هذا السؤال.

- أكثر من أربعين مرة.

سرت الهمهمات والاستعجابات بين الصفوف. ثم أردفت شيماء:

- هذه جزئية خارج موضوع المنهج.

قالتها شيماء وهي تداعب اللاب توب خاصتها، ثم قالت:

- سأعرض عليكم بحثًا لي في هذا الباب، لمن يريد أن يستفيد.

ثم قامت بالعرض عن طريق البروجيكتور.

* * *

" لا يُعلم بلد في أقطار الأرض أثنى الله عليه في القرآن بمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف ولا شهد له بالكرم غير مصر"

جلال الدين السيوطي.

ما ورد من ذكر مصر في القرآن...

ذكر الله تعالى مصر في أكثر من 40 موضعًا في كتاب الله إما بالاسم أو بالإشارة إليها أو بذكر جغرافيتها أو ذكر بعض الأماكن من أرضها مثل جبل الطور وسيناء، كما ذُكر اليَمّ "نهر النيل"، وسجن يوسف عليه السلام.

أما ما جاء في ذكر مصر باسمها:

"قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ" _ البقرة الآية 61.

ذهب أهل العلم إلى قولين: هل هي مصر من الأمصار أم مصر فرعون؟

الأول: بأن المقصود هي مصر من الأمصار أي بلد من البلدان، وذلك كما روي عن ابن عباس وغيره وإلى هذا الرأي ذهب ابن كثير صاحب التفسير.

والقول الثاني: بأنها مصر فرعون، وإليه ذهب فريق من أهل العلم، وقال ابن جرير: "وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود "اهبطوا مصر" من غير إجراء أي من غير تصريف".

وأرجح _أنا_ أنها مصر فرعون وذلك:

لأنه كما أشرنا؛ فبعض القراءات تفيد بأنها مصر، والقرآن لا يختلف بعضه عن بعض.

وحينما أراد أتباع موسى أن يستزيدوا من المتع وأن تتنوع أصناف الطعام قال لهم موسى اهبطوا مصر، فلا يعقل أن نبي الله موسى أراد بذلك أن يهاجر أتباعه إلى بلد آخر غير مصر لطلب الطعام الذي طلبوه، إذ إن مصر كانت أكثر خيرًا وأوفر حظًا في النعم عن غيرها من البلدان، حتى أن كل البلاد

حولها كانت تعيش حياة بدو لا حضارة ولا مدنية، بل أن مصر كانت مقصد كل محتاج والكل يطلب الخير منها و يهاجر إليها ولا يهاجر أبناؤها إلى سواها.

وإننا منذ سنين مضت كنا نسمع أهل الريف إذا أراد أن يسافر إلى القاهرة قال باللغة الدارجة: "مسافر إلى مصر" على الرغم من أنه يعيش في مصر فعلًا، إلا إنه أطلق اسم مصر على مدينة هي جزء من مصر وليست كل مصر، وأرى أن هذا التعبير أقرب إلى ما عبّر به نبي الله موسى.

غير أن أرض سيناء ترتفع عن مستوى سطح البحر بمتوسط 500 متر، في حين ترتفع سطح محافظات الدلتا والقاهرة بمتوسط 23 مترًا، أي أن المسافر من سيناء إلى محافظات القاهرة العظمى هو في الحقيقة يهبط من الأعلى إلى الأسفل.

"وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا" – يوسف – الآية 87

"وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ" - يوسف – الآية 21.

"فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ" - يوسف – الآية 99.

"وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ" – الزخرف- الآية 51.

* * *

ما جاء في ذكر الأماكن والجغرافيا...

"كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ "25" وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ "26" وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ "27"- الدخان.

"فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ "57" وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ "58" كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ "59" فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ- "60" الشعراء الآية 57 : 60.

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" - البقرة الآية 63.

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" _ البقرة الآية 93.

"وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا" – مريم الآية 52.

"فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ" – القصص الآية 29.

"فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" – القصص الآية 30.

"فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ" _ القصص الآية 40.

"وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ" – القصص الآية 44.

"وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" – القصص الآية 46.

" وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ "1" وَطُورِ سِينِينَ "2" وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ "3" "_ التين الآية 1 : 3.

"وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ" – البقرة الآية 50.

"وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" – يوسف الآية 30.

"وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ" – يوسف الآية 82.

"وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ" – القصص 15.

"فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ" – القصص الآية 18.

"وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ" – القصص الآية 20.

* * *

ما جاء في ذكر مصر بلفظ "الأرض"...

إن لفظ الأرض من أقدم الأسماء والصفات التي أطلقت علي مصر من قديم الزمن، حتى أنه أطلق عليها "كمت" .. و"كمت" بالمصرية القديمة تعني الأرض، وليس هذا فقط بل أن الملوك بالعموم من أولهم إلى آخرهم كانوا يحملون لقب "ناب تاوي" والتي تعني سيد الأرضين، أي أرض الشمال وأرض الجنوب.

ولقد سجل القرآن الكريم هذا الاسم والوصف الذي تسمت به مصر من قديم الزمن في كثير من الآيات والمواقف ولكن غفل عنه كثير من الناس إذ اقتصر الفهم والملاحظة على اللفظ الصريح للاسم فقط.. مصر.

"وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ" – البقرة الآية 60

"وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ" _ الأعراف الآية 127.

"قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" - الأعراف الآية 128.

"قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ" - الأعراف الآية 129.

"وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ" - الاعراف الآية 137.

"فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ" – يونس الآية 83.

"وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" – يوسف الآية 21.

"قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ" – يوسف الآية 55.

"وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" – يوسف الآية 56.

"قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ" – يوسف الآية 73.

"فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ" – يوسف الآية 80.

"فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا " – الإسراء الآية 103.

"وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا" – الإسراء الآية 104.

"قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى" – طه الآية 57.

"إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ" – القصص الآية4.

"وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ" – القصص الآية 5

"وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ" – القصص الآية 6.

"فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ" – القصص الآية 19.

"وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ" – القصص الآية 39.

"وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" – القصص الآية 77.

"وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ" – غافر الآية 26.

"يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ" – غافر الآية 29.

❋ ❋ ❋

-18-

شعرت شيماء بالقلق يجتاحها حين رأت زوجها على تلك الحالة من الفزع، يتعثر في ارتداء ملابسه فقد ارتعشت يداه، وتوتر وجهه، يعض شفتيه بعصبية، صوته مخنوق وبريق الدموع المتحجرة واضح جدًا بمقلتيه، ومن وقت للثاني يتنهد بحرقة "يا رب".

- ما بك يا حبيبي؟

أجاب بصوت مهزوز تظهر عليه أمارات الخوف والقلق:

- تعرض طارق لحادث بالسيارة وهو الآن بالمستشفى.

- يا ربي! هل أرافقك؟

- ابقي هنا، وسأهاتفك لأطمئنك، فلربما أضطّر إلى المبيت معه.

تناول مفاتيحه وحافظة نقوده ثم هرول مسرعًا ناحية الباب.

لبثت دقائق طويلة قبل أن ينتشلها من قلقها رنة الموبايل، كانت غادة تتراقص فرحًا على الطرف الآخر:

- شيمو يا شيمو يا شيمو.

- خيررررررر؟

- سيمو سيمو سيمو.

- من سيمو؟

- إسلام حبيبي.

- ماله؟

- سأقابله.. الليلة.

كانت شيماء مكدّرة المزاج بما لم يدع لها جانبًا من التركيز، فأهملت كلامًا كثيرًا كانت قد ادخرته لنصح غادة، وقد كانت تود لو أن غادة التفتت إلى شاب مثل مالك، ونسيت أمر هذا الـ "إسلام.. الفيسبوكي"، واكتفت برد سطحي:

- تمام، خلي بالك من نفسك.

انتهت المكالمة..

* * *

لم تدخر غادة أي جهد في التجمل، ولم تبخل على نفسها في الزينة والتبرج، ارتدت شيئًا مناسبًا للإثارة لكن للحد الذي يناسب شابًا يريد أن يتقدم للخطبة والزواج، وأثناء ذلك كانت تلحظ الساعة باهتمام وهي أمام مرآتها، تتزين بسعادة ما بين رقص وغناء.

* * *

وصلت غادة إلى مكان سماه لها إسلام، وما أن وصلت حتى أبصرته وسيمًا يبتسم غير بعيد.

هل هو موسم الوُسَماء؟..

لماذا لا تتزوج المرأة من اثنين؟..

تقدمت إليه بخطوات من لا يحسن المشي، فتقدم إليها ثابتًا واثقًا مبتسمًا، اتسعت بسمتها لتشمل جانبي فمها ووجنتيها، تهلل وجهها فرحًا، واحمر خجلًا.

وقفا متجابهين يتبادلان نظرات بالحب تلهبت، قبل أن تمد إليه يدها بالسلام، لتتفاجأ به يجذبها من يدها لتغوص بين ذراعيه في حضن التاعت

هي له بما فيه من جرأة وتهور، بلطف أبعدت نفسها عن محيط ذراعيه، وتمتمت بخجل وخدين ضربهما الدم الساخن:

- كيف حالك؟

- انظري للفرحة بعيني وأنتِ تعلمين كيف حالي.

نظرت، نظرت باهتمام، نظرت بدهشة.

اتسعت عيناها..

فغر فاها..

لم يكد إسلام يترجم تعابير وجهها حتى شعر ببرودة تلامس مؤخرة رأسه، وقبل أن يلملم شتات تركيزه ليستوعب الأمر، وجد الظلام حالكًا والمكان يدور، والأرض تتأرجح تحت قدميه، وخيل إليه أنه سمع غادة تصرخ.

خرّ على الأرض مغشيًا إثر ضربة لم تتحملها رأسه من مسدس محكومة قبضته داخل يد..... مالك.

صرخت غادة، وبركت على الأرض تتحس أثر الحياة في أنفاس إسلام، فوجدته يشخّر في نومة إجبارية، نظرت إلى مالك بفزع من وراء دموعها.

لا تصدق أنه يغار عليها إلى حد يرتكب فيه مثل هذه الحماقة..

لا تدري كيف عرف بمكانها..

هل كان يراقبها؟..

وهل كان يعلم بأمر إسلام من البداية أم لا؟.

- ما هذا الذي فعلته يا مجنون؟

أهمل الرد عليها، وأشار إلى أحد ينتظره داخل سيارة واراها الظلام، فأقبل الآخر بسيارته إثر إشارة مالك مسرعًا، وترجل عن السيارة، لتبصره غادة قبل أن تشعر بدوار يصيبها، فقد تعرفت على وجه سائق السيارة:

- يونس؟

نظر إليها يونس بملامح حادة جادة، قبل أن يتناول الرجلان الجثة المفترشة على الأرض وإلقائها كالزكيبة في شنطة السيارة.

- عمر! انطلق أنت، وسأوافيك بعد ساعة. "قالها يونس".

- عمر؟؟ "استفسرت غادة".

تنهد يونس، وأشعل سيجارة تجرع منها جرعة عطشة، ونفخ دخانها جملة في الهواء بقوة:

- تعال معي، سأفهمك كل شيء.

- لن أذهب معك لأي مكان، ماذا فعلت بإسلام؟ وإلى أين أخذتموه؟ لن أسكت على هذا الأمر.

بذل يونس مجهودًا غير يسير في تهدئتها لتستوعب، وطفق يخبرها بالحقيقة بنبرة جافة تحمل بين طياتها الأسى على حالها والحزن على صديقه ومرارة الصبر على الأخذ بثأره.

كان يونس يوم يستجوب الإرهابي في غرفة التحقيقات منتبهًا متحفزًا يسجل كل كلمة تخرج من فمه بدقة وترتيب مطبوع عليه طبعه بحكم عمله كضابط بالإضافة إلى اهتمام تحفزت معه كل خلاياه، وكان من مجمل المعلومات التي انتزعها من فم الإرهابي والتي أخفاها يونس عن باقي فريق التحقيقات هو أن شخصًا محترفًا بوسائل الاتصال والكمبيوتر يعمل كحلقة

وصل بين أعضاء الجماعة وقادتها، بالإضافة أنه صائد للبنات البائسات من عوانس وغيرهن ممن هن على استعداد أن يتركن بيوتهن على إثر وعود كاذبة بالزواج تارة وبالعمل المربح تارة أخرى، لينتهي بهن المطاف إلى تدفئة فراش التكفيريين فيما يسمونه بنكاح الجهاد.

لكن أمرًا أثار دهشة يونس قدر ما أثار قلقه، وهو حين بدأ التجسس على حساب الفيس بوك الذي أخبره به الإرهابي، وجد من ضمن قوائم الأصدقاء عند ذاك الإرهابي صائد البنات شخصًا يعرفه بشكله واسمه، هو غادة.

تضمنت خطة يونس للوصول إلى هذا الشخص دخولاً مزيفًا لصديقه وصديق الشهيد خالد، هو النقيب عمر، والذي تعرّف على غادة فيما بعد باسم مالك، كانت مهمة عمر مختصرة ومحددة وهي الوصول إلى هاتفها، وبالطبع لم يجد أي عناء في دعوتها إلى العشاء بمكان رومانسي خلاب، وكل ما كان يحتاجه هو الولوج إلى هاتفها المحمول وهنا يأتي دور كريم، وقد تحقق له ذلك بذكاء حين رتب للمقابلة هو وأحد زملائه الضباط، ذاك الذي تنكر في هيئة أحد العاملين بالمطعم حين أعطاه عمر هاتفه مصحوبًا بهاتف غادة حين أخبرها بأنه لا يريد لشيء أن يصرف انتباهها عنه، لكن في الحقيقة كان صاحبهما كريم منتظرًا وصول هاتفها ليباشر ما يجيده من فك شفرته ونقل بياناته والتجسس عليه، ومن ثم التجسس على هاتف إسلام عضو الجماعة الإرهابية.

❋ ❋ ❋

-19-

قاعة المحاضرات

محاضرة إبراهيم عليه السلام، وزوجته هاجر المصرية..

وولده إسماعيل أبو العرب وجد النبي محمد..

بعد بعثة نبي الله إبراهيم إلى قومه البدو الآراميين، تتبع منبتهم وإقامتهم فدعاهم في بلده الأصل العراق، وهاجر ليدعوهم بحران ومنها إلى فلسطين.

ولم يمكث بفلسطين إلا سنوات قلائل قبل أن يعتزم الهجرة إلى مصر. وذاك لأن تحالفًا بدويًا لقبائل الآراميين _ أبناء جنسه عليه السلام _، قد تحالفوا وعقدوا العزم والنية على غزو مصر، ذاك البلد الأمين، أرضها خصبة، وخيرها كثير، وشعبها طيب القلب لين الجانب، متسامح كريم.

بدأت الفكرة عندهم حين دخل الآراميين أفراد متفرقة مشرذمين جائعين شحاذين من قبائل يقال لها عماليق تنحدر من نسل وجنس ولغة الآراميين، لا شأن لهم ولا قيمة، يطلبون الكلأ والمأوى، فرعوا على أرضها، وتاجروا، وسرقوا، ونهبوا، وتكاثروا فيما بينهم، وطمعوا في حياة من العيش رغدة يسيرة، وصدق عزمهم على الاستيطان بأرضها، وقد كان العماليق قبل ذلك بدوًا أجلافًا من سكنى البادية، فجعلت البادية أجسادهم صلفة خشنة، وقرص الجوع بطونهم فاحترفوا السرقة والنهب والقتل، وتسلحوا في عصابات كقاطعي طريق ومرتزقة، فامتلكوا سواعد مدربة، وقلوبًا قاسية زادها الكفر غلاظة وصفاقة، وأكسبتهم الحروب خبرة وتفوقًا، وجعل الشرك من قلوبهم ظلامًا أسود لا تلين إذا لان الحجر.

ورغد العيش بمصر أكسب المصريين قلبًا حانيًا وسواعد لا تضطر إلى حمل سلاح، وطبعًا وديعًا، ذاك ما ترجمه ابن خلدون في مقدمته الشهيرة حين أصّل لعمل الاجتماع فيما أسماه وقتها بعلم العمران، وكان فيما أخبر وحلل أن ساكني الفلاة والخيام متوحشون شرسون فيما جُبلوا عليه من خطر محدق يحوم حولهم ما بين قبيلة غائرة أو وحش كاسر أو طير جارح فبذلك طُبعوا بطبع التوثب والقتال، على عكس وداعة ولين ساكني المدن والحضر، فكلما زاد الخير والرخاء وأمن الناس واطمأنوا، أهملوا الخوف وأمنوا الحرب، وصاروا إلى الألفة واللين والسماحة.

حتى أتى يوم على المصريين كالحًا، يوم هجمت قبائل الرعاة العماليق الآراميين المشركين على مصر من بوابتها الشرقية، هجمة جائعة همجية، هؤلاء العماليق المشركين الذين وصفهم مانتيون المؤرخ المصري حين أرخ لتلك الحقبة القاتمة من تاريخ مصر بالهكسوس، ولم يلبثوا إلا قليلًا حتى وصلوا كالجراد إلى الأرض المقدسة..

فعاثوا في الديار فسادًا، ونهبوا ثرواتها، وقتلوا الرجال، واستعبدوا النساء، وحرقوا المدن، وأتلفوا وأفسدوا المعالم والفنون.

وصل دنسهم إلى أرض منف..

جعلت أميرة منف تقطع الأرض بجناحها داخل قصر منف، غابت أخبار زوجها أمير منف هو ومن خرج معه لردع أقدام الرعاة العماليق من أن تدنس الأرض المقدسة.

ذهب القلق بها، وتمكنت من نفسها الرقيقة الهواجس والوساوس "ترى ما الأمر؟"، مضى الوقت مريرًا وهي تنتظر بشارة عودة زوجها منتصرًا بعد أن أذاق الرعاة مرارة الهزيمة والذل والخزي.

توجهت إلى السماء تدعو الله الخالق الواحد، رب مصر ورب إدريس بأن يحفظ أرضه المقدسة، إلى أن تطايرت إلى أذنيها أصوات جلبة قطعت عليها صلواتها، فوقع القلق في قلبها، وتكدر صفو وجهها الرائق الجميل:

- ما كل هذه الجلبة؟

تلك جلبة لا معنى لها غير أن....

- مولاتي الأميرة.. مولاتي الأميرة.. مولاتي.

كان ذاك صوت وصيفتها وهي تمخر درج السلم في فزع وذعر.

- ما الأمر يا تي تي؟

وقفت الوصيفة تي تي تستند على باب جناح الأميرة، وهي تلهث مقطوعة النفس، والدموع بعينيها:

- الرعاة يا مولاتي، الرعاة على مشارف حديقة القصر.

- لاااااا، ماذا تقولين؟

لم تتلق جوابًا غير دموع انهمرت من عين تي تي، فاقتربت منها بقامة شامخة، وخطوات ثابتة:

- لا تخافي، سيدفنهم زوجي ببطن تلك الحديقة التي دنستها أقدامهم القذرة، لا تخافي.

لم تكد تتم كلماتها حتى ازدادت الجلبة، وعلا صوت الزمجرة والصريخ، فعلمت الأميرة يقينًا أن تلك الأقدام القذرة قد دخلت إلى القصر تعثو به

فسادًا وسرقة ونهبًا وتقتيلًا، فأسرعت تغلق باب جناحها وابتعدت عنه خطوات تترقب في خوف تملك قلبها.

لحظات تمر..

قلبها يقفز من مكانه خوفًا، لكنها لازالت متحاملة متماسكة..

صرخت تي تي إثر ركلة عنيفة فتحت الباب الضخم على مصرعيه ليظهر خلفه فارس ضخم الجثة عريض العظام صلف الوجه قبيح المنظر، وهو ينخر ويشخر كخنزير والرذاذ يتطاير من فمه كرغاء الإبل.

شعرت الأميرة بالبرودة تجتاح وصيفتها، وبالرعشة تجعل من جسدها الدقيق يتراقص غصبًا عنها، فربتت الأميرة على كتفها تطمئنها، ثم بتأفف نظرت إلى الفارس العمليقي وإلى جماعة الجنود حوله، ففهمت من زيه ومن التفاف أعوانه أنه قائد فيهم، فقالت بما جبلت عليه من عزة نفس المصريين وكبريائهم:

- ما هذا أيها البدوي الصلف؟ ألم تعلمك أمك بألا تهجم كالبهائم على مخادع السيدات؟

التهب وجهه حرجًا، فقد أهانته وهو وسط أتباعه:

- لا لم تعلمني.

- بالطبع، كيف ستعلمك وهي لا تحسن غير حلب الغنم وحمل روثهم فوق رأسها.

- حسنًا حسنًا.. أنتِ إذن الأميرة، أميرة منف الجميلة.

اقترب منها خطوتين، فأسرعت نحو سيف معلق بالجدار وسلّته من غمده:

- غادروا قصري فورًا قبل أن أدفنكم جميعًا بحظيرة البقر.

قهقه الهكسوسي:

- لو كان لزوجك ربع شجاعتك لما صرخ كالنساء أمامي قبل أن أذبحه.

اغتاظت الأميرة وهجمت عليه، لكن ضربة خبيرة من سيفه أطاحت بالسيف من يدها الرقيقة:

- وفري طاقتكِ لليل، الليلة ستدفئين مخدعي.

- اجعل يدك القبيحة تلمسني وسأجعلك تسبح في دمك النتن.

ثم نظر إلى أعوانه هادرًا:

- خذوها إلى قصر ملكنا، واحملوا إليه كل ما طاب بهذا القصر.

استتب للهكسوس الأمر على حكم مصر الدنيا في نصفها الشمالي، ونصّبوا لهم ملكًا وأقاموا لآلهتهم معابد وهياكل وملئوها بالكهنة ليدنسوها ويجعلوا للشرك معبدًا ومسجدًا على أرض الإله.. مصر. في حين ملك المصريون على الصعيد.. مصر العليا.. بنصفها الجنوبي.

حينها تلقى نبي الله إبراهيم أمر السماء بالهجرة إلى أرض الله مصر، لدعوة وهداية بني جنسه من الآراميين الهكسوس. فشدّ الرحال وضرب أكباد الإبل إلى مصر.

وتزامن دخول خليل الرحمن مصر زمن أول ملك من ملوك الهكسوس، فمضى خليل الرحمن يدعوهم ويسمع منهم ويسمعون منه حتى قضى الله أمره بعودته من حيث أتى، فحمّلوه _عليه السلام_ بالعطايا والهدايا من خدم وغنم، وزادوا فوق ذلك أن وهبوا لزوجته سارة أميرة مصرية مؤمنة وقعت تحت وطأة الأسر.

كانت تلك المصرية مثيرة للقلق، تؤرق مضاجعهم وتكدر صفو نفوسهم، فقد كانت أبية عصية، فخشاها ملك الهكسوس من أن تكون شرارة تندلع منها نار تأكل ملكه، ويلتف حولها المصريون ليطالبوا بثأرهم وأرضهم وتطهير أرض مصر من دنس الهكسوس المشركين، فما استقر رأيهم إلا أن يتخلصوا منها بأن أهدوها إلى سارة، وبذلك يأمنون شرها حين تغادر أرض مصر مع خليل الرحمن وزوجته.

أحبت سارة تلك الأميرة المصرية الشابة فيما لمسته منها من طبع كريم، وتوحيد لله خالص، وأخلاق لا تليق إلا بأميرة.

لم تكن تلك الأميرة المصرية الموحدة بالله سوى..

أميرة مدينة منف المقدسة التي ولدت وعاشت على أرضها..

هاجر..

جدة العرب..

وأم الأنبياء..

مضت السنون وخليل الرحمن يدعو بالولد، تقدم العمر بسارة، واحترق قلبها على حال زوجها الذي يتوق إلى الولد، فبعد عظيم إصرار منها انتهت إلى إبراهيم ينزل على رغبتها بأن يتزوج تلك الشابة اللطيفة الموحدة لتلد له ولدًا، يرثه، ويتحقق به وعد ربه إذ وعد خليله بأن نسلاً من صلبه سيملأ الدنيا ويرث ملكه ونبوته.

تزوج خليل الرحمن من هاجر المصرية بأمر ربه، فقد ارتاضها الله زوجًا لنبيه بما تحمل بين جنباتها من حب لله، وصدق عبادته، وحسن توحيده، شأنها شأن آبائها وأجدادها المصريين.

وأولدها خليل الرحمن بِكره وهو ابن ستة وثمانين سنة، ولدت هاجر رضيعًا، أبوه نبي وخليل الرحمن.. ملك، وأمه عابدة لله قانتة.. أميرة، فورث في دمائه النبوة والحكمة والملك وحب الله.

ذاك الرضيع ذو الشأن العظيم، الذي سيرث الملك والنبوة، لم يكن ليولد إلا من رحم عظيم، ولم تكن تسري في عروقه إلا دماء مباركة.. دماء المصريين.

وبمولده صار خليل الرحمن من الفرح في غاية، فأسمى وليده بإسماعيل أي "سمع إيل التي بمعنى سمع الله"، مرت سنة وكان ذاك حين تلقى إبراهيم عليه السلام أمر السماء بأن يأخذ الرضيع وأمه إلى الوادي غير ذي زرع عند بيت الله الحرام وكعبته. ولكنها دائمًا هي نفس خليل الرحمن التي لا تجزع ولا تقنط، فقد كان صدّيقًا حليمًا أواهًا.

فارقت سارة هاجر وابنها على حزن، فقد أحبتها وآنست إليها وآختها في الله، لكنها نزلت عند أمر الله وسلمت تسليما.

الرمال في كل مكان، لا صوت غير صفير الرياح، لا زرع، لا ماء، لا أنيس ولا ونيس بالوادي غير ذي زرع، فبنى لهما خليل الرحمن عريشًا على ربوة، ووضع بين يديها جرابًا يحوي تمرًا وسقاةً بها ماء، ثم تركهما حيث أمره الله عند البيت المحرم.

- إلى من تكلنا يا إبراهيم؟

لم يحر إبراهيم جوابًا، أولاها ظهره ومشى ليغادر، هكذا كان أمر الله.

- إلى من تكلنا يا إبراهيم؟

لم يرد.

يقينًا شعرت هاجر بأن هذا النبي الرحيم، وهذا الملك العظيم، وذاك الأب الذي قضى الليالي ساجدًا باكيًا لله من أجل الولد لن يتركهما إلا على مضض، لن يتركهما إلا بأمر من الله.

- ءالله أمرك بهذا؟

- نعم. "رد إبراهيم باختصار شديد ولم يزد عليها بكلمة".

فردّت عليه هاجر ردًا لن ينسي. حين سمع خليل الرحمن ردها علم يقينًا لماذا هي من دون نساء العالمين، علم حكمة الله التي اقتضت أن تلد هي ذاك الولد عظيم الشأن، رأي إبراهيم بعينيه ذاك القلب الموحد وتلك النفس الصابرة وهذه العابدة المتوكلة.

- انطلق فإن الله لن يضيعنا.

لم تجزع نفسها من أمر الله، لم تخش شيئًا مع أن كل ما حولها يجب أن تخشاه، صحراء جرداء، لا طعام ولا ماء، وحوش كاسرة، وعقارب وثعابين لادغة، ولصوص غائرة.

توقف خليل الرحمن قليلاً من حيث يبصر زوجته ورضيعه وهي لا تبصره، بعين ماجت فيها ماء الدموع رفع يديه إلى السماء يناجي ربه:

- "رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع.. عند بيتك المحرم.. ربنا ليقيموا الصلاة.. فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون"..

مرت الأيام على هاجر ورضيعها، نفذ الماء والطعام، صرخ الرضيع من الجوع والعطش، فما كان منها إلا أن تعلقت بالسماء تدعو الله وتصلي.

توكلت علي الله ولم تتواكل عليه، تعلم أن الزرق يحتاج إلى السعي، فطفقت تسعى بين جبلي الصفا والمروة في أشواط سبع، تقف علي قمة كل جبل لتبصر أثر الحياة فيما حولها مد البصر بتلك الرمال التي فارقتها الحياة.

تلك الأميرة التي سمع الله دعاءها واستجاب، وأرسل لها ملكًا من السماء منزّل، ليبشرها ويطمئنها.

تلك المصرية التي تفجرت تحت قدمي وليدها ماء زمزم فجعلت تحيط حوله التراب وتزمه حتى صار اسم البئر "زمزم".

مرت الأيام حين أبصر نفر من قبيلة مصرية الأصل يقال لها جرهم _ وجرهم كلمة مصرية قديمة تعنى مهاجري الحدود_ طيرًا يحوم في السماء، فثارت دهشتهم إذ أن هذا الطير لا يحوم إلا حول ماء، وهُم قوم ترحال ويعرفون البادية عن ظهر قلب ولا يوجد فيما يعرفون نبع ماء في هذا المكان، فما كان منهم إلا أن أرسلوا من يأتي لهم بخبر هذا الطير.

كان ذاك متزامنًا مع نفرين من العماليق _ الذين منهم عماليق مصر الهكسوس _ قد ضلت بعير لهما وجعلا يبحثان عنها حين أبصرا الطير يحوم في السماء، فما كان منهما إلا أن أتيا موضع الطير لينظرا الأمر.

فما وجد الجميع غير بئر ماء، ورضيع في حجر أمه.

أقبل الجميع علي هاجر المصرية يستأذنون منها المكوث بالجوار حول نبع الماء، جرهم وقبيلة العماليق، وسألوا عمن حفر البئر، فقالت سليمة النفس صحيحة الإيمان:

- هو سقيا الله.

فما كان من بنت المصريين، سليلة الملوك والأمراء إلا أن وافقت وأنزلتهم منزلاً كريمًا، وجعلت بما طبعت عليه من كبرياء الإمارة وعزة النفس تملي على الجميع شروطها:

- مرحبًا بكم جواري، لكم الأرض والماء تنتفعون بها، لكن اعلموا أن للأرض والماء سيد، فالأرض والماء لي ولابني.

فوافقوا وذاك أن في هذا العهد عُرف مُتّبع وهو أن من حفر بئرًا صار ملكًا عليها.

وإذا بدعوة خليل الرحمن تتحقق، وبالوادي يضج بالعمارة والحياة، وجعلت هاجر بعلمها الذي تعلمته علي يد المصريين تُعلم الناس الزراعة والمدنية وما تقوم عليه الحياة من علوم دنيا ودين، إذ أنهم عرفوا فيما تأتّي أنها مصرية كانت على الحنيفية الإدريسية ومنها إلى الحنيفية الإبراهيمية التي أتى بها زوجها، فسمعوا منها ورأوا عقيدة سمحة، وديناً راقيًا، فطاقت نفوسهم إلى المزيد، وهكذا هيأت هاجر ساكني مكة الجدد، فسهّلت مهمة الدعوة على زوجها خليل الرحمن حين زارها فيما بعد ليرفع قواعد البيت التي اندثرت ويحج البيت الحرام كما حجه من قبل إدريس عليه السلام وأتباعه على التوحيد من المصريين القدماء.

وعرجت القوافل التجارية القادمة بين اليمن إلى الشام في غدوّها ورواحها إلى جوار زمزم يتزوّدون بالماء والطعام، ويتاجرون فيما حملوا من سلع وبضاعة.

فجعل الجميع في خدمة هاجر وولدها، وجعلوا من راحتهما وأمنهما غاية لا يغفلون عنها.

شبّ إسماعيل وصار فتًا قويًا يبلغ من العمر ثلاثة عشرة سنة، كان ذاك حين زارهما خليل الرحمن بعد أن تاقت إليهما نفسه، وزفّ إليهما بشرى مولد إسحاق من زوجته سارة، ففرح لذلك إسماعيل أيما فرح أن صار له أخًا من تلك السيدة الرقيقة التي أخبرته عنها أمه هاجر بأنها هي التي عنت شديد العناية بأمه هاجر يوم وهبها لها ملك الهكسوس بمصر، فوجد إبراهيم ولده وقد صار فتيًا قويًا صلبًا، أحسنت هاجر تربيته كما تربت هي على أرض مصر، وجعلت تشغل نفسها بتعليم وتحفيظ ابنها كلام الله وتعاليم الحنيفية، ففرح لذلك إبراهيم أيما فرح، غير أنه أعجب بهاجر حين رأى أن ولده فارس شجاع، لا يخاف ولا يهاب، ملكًا في تصرفاته، أميرًا في أخلاقه، يهوى الصيد، ويبرع في رمي السهم، وكان مولعًا باستئناس الخيل الوحشية البرية التي تهابها قلوب الفرسان، فكان إسماعيل فيما علموا أول من استأنس الخيل وركبها، فاندهشوا وارتاعوا حين أبصروا إسماعيل بعد غياب له طال وسط البراري يعود راكبًا ظهر حصان بري، وما كان أحد منهم يجرؤ على الوقوف حتى بجانب أحدها لما جبلت عليه هذه الخيل البرية من وحشية وتمرد.

لكن العجب سرعان ما زايلهم إذ أخبرتهم هاجر بأن ابنها ولا شك قد ورث حب الخيل عن أخواله المصريين الذين ورثوها عن أبيهم ونبيهم إدريس عليه السلام، فقد استأنس المصريون الخيل وركبوا ظهورها في عمل وفي زرع وفي حرب، وربطوا بها العجلات والمركبات.

واختتن إسماعيل بأمر أبيه ففرح له الناس من جرهم وعماليق، وقد كانوا فيما مضى لا يختتنون إلا حين أمر الله خليله بالاختتان، ولم يدر لهما

بخلد حين أخبرت هاجر الجميع بأن المصريين يختتنون منذ عهد بعيد، وكان ذاك فيما تعلموا من النبي المصري إدريس عليه السلام.

ثم طفقا إبراهيم وولده إسماعيل يرفعان قواعد البيت الحرام التي كانت موجودة من قبل، فما زادا إلا أنهما رفعا الحوائط فوق القواعد ليصير بنيانًا، وهاجر تبارك عملهما بدعواتها وصلواتها.

تلك هي هاجر المصرية التي تقدست وتقدس عملها حتى صار في شعائر الله، فإلي آخر الزمان سيحج الناس إلى البلد التي سكنتها هاجر وعمّرتها، ويطوفون بالبيت الذي بناه ابنها وزوجها، وسيسعون بين الصفا والمروة كما سعت، وسيشربون من ماء زمزم الذي تفجر تحت قدميها، وسيرمون الجمرات سبعًا كما رمت هي إبليس، وسيذبحون كما ذبح خليل الرحمن كبشًا أُنزل من السماء فداءً لابنها إسماعيل.

ومضت السنون وإذا بإسماعيل شاب يافع ابن ثمانية عشرة سنة، فرأت هاجر أنه قد آن أوان زواجه، وكانت قد أعدّت في نفسها أن تزوجه إحدى بنات المصريين، فاختار إسماعيل زوجة من العماليق يقال لها صدا كانت قد أعجبته، فنزلت هاجر على مضض عند رغبة ابنها ولم تشأ أن تجبره على زواج المصرية، ومضت الأيام حين أتي خليل الرحمن إلى مكة زائرًا وحاجًا فعرج عليه السلام على بيت ابنه فلم يجد بالبيت غير زوجته وكانت لا تعرف أن هذا الشيخ الضيف ما هو إلا حماها خليل الرحمن، فسألها إبراهيم عن حالها، فتبرمت وطفقت تشكو له مُر عيش تعانيه مع زوجها إسماعيل فهو إما ساجد راكع، وإما بين الناس يجالسهم يعلمهم أمر دينهم وينظر في أحوالهم، فحمّلها خليل الرحمن رسالة:

- حين يعود زوجك أقرئيه السلام، وأخبريه أن يغير عتبة داره.

فعاد إسماعيل لبيته وأخبرته زوجته بما كان، ووصفت له الشيخ، فعلم أنه أبوه وفهم مراده، فطلقها، ولم يمض قليلاً حين أرسلت هاجر ركبًا إلى مدينة منف التي ولدت بها تطلب زوجة لولدها، وحضرت المصرية وتمت الزيجة، وما كان إلا كما كان حين أتى إبراهيم إلى مكة زائرًا وحاجًا، وورد بيت ابنه فلم يجده، فسأل زوجته المصرية عن الحال، فجعلت تعدد نعم الله وحسن عشرة زوجها العابد، والخير الكثير الذي ترفل فيه بجواره، فحمّلها إبراهيم رسالة:

- حين يعود زوجك أقرئيه السلام، وأخبريه أن يثبت عتبة داره.

فعاد إسماعيل لبيته وأخبرته زوجته بما كان، ووصفت له الشيخ، فعلم أنه أبوه وفهم مراده أنه يريد من ابنه أن يبقي علي هذه الزوجة المصرية المباركة.

وكانت الألسن زمن خليل الرحمن مختلفة، لكنها مختلفة كاختلاف اللهجات في الإقليم الواحد، تشترك في كثير من الكلمات والتراكيب.

فكانت اللغة التي تكلم بها آدم عليه السلام هي العربية في صورتها البدائية، وحين تكاثر النسل وكثرت الهجرة، أصاب اللسان العربي شيئًا من اللحن والتبديل، إذ أن كل جماعة قد عاشت في بيئة مختلفة طفقت تصف ما تبصره بأوصاف لا تعلم عنها باقي الجماعات شيئًا، فمثلاً من عاش بالبادية غير الذي عاش بالريف غير الذي عاش بالسواحل، فجعل كل فريق يصف بيئته بما يتراءى له ويتناسب مع لسانه، فاختلفت الألسن، لكنها في الأصل لازالت من منبع واحد، فصار التغير والتبدل طفيفًا.

ولنفس السبب استطاعت هاجر المصرية أن تتعامل مع زوجها وزوجته سارة، وبالتالي التعامل مع العماليق من ناحية أخرى وهم يتكلمون باللسان الآرامي.

ونشأ إسماعيل بين اللهجات المختلفة بين لهجة أمه المصرية القديمة وبين لهجة جرهم المصرية القديمة وبين لهجة العمالقة والتي هي لهجة أبيه وزوجته سارة وأخيه إسحاق وهي اللهجة الآرامية المندرجة من اللغة العربية، وإن كانت ليست العربية بمعناها المعروف الآن، فتعلّم إسماعيل ذلك كله، وطفق يمزج بينها ويفاضل ويمايز بينها حتى صار هو أفصحهم لسانًا وأوضحهم بيانًا، وما كان من اللهجة الوليدة على لسانه إلا البذرة الأولى للغة عربية فصيحة كان إسماعيل ابن هاجر المصرية هو أول من فُتق لسانه بها حتي نمت وتطورت إلى أن تعملقت وتعاظمت في شبه جزيرة العرب، فكانوا هم أفصح الناس لغة وأعظمهم أدبًا وبيانًا.

فكان إسماعيل عليه السلام ابنًا لمصرية، وزوجًا لمصرية، وجاء من بعده نسله وذريته التي أنجبها من زوجته المصرية، فقد كان كل نسله الذي أتى من بعده يحمل في عروقه دماء وصفات المصريين خالصة، يتوارثونها أبًا إلى ابن إلى حفيد إلى أن صارت إلى نبي الله محمد.

فكان رسول الله محمد حفيد إسماعيل عليه السلام من زوجته المصرية، وحفيد أمه هاجر المصرية.

حتى أن صفات المصريين ظهرت عليه_ صلي الله عليه وسلم_، فقد كان أفصح الناس وقد كان قبله في ذلك إسماعيل وقد كان قبلهما إدريس المصري.

وتكلم صلى الله عليه وسلم بجميع الألسن في زمنه، وسبقه في ذلك إسماعيل، ومن قبلهما إدريس.

ووهب الله لرسوله محمد العلم والحكمة والنبوة وكان وسط الناس ملكًا، وكذلك كان أبوه إسماعيل، وكذلك كان أبوهما إدريس.

حتى في حبه للخيل، ورثها عن أبيه إسماعيل، الذي ورثها هو أيضًا عن أبيه إدريس.

حتى أنهم صاهروا المصريين و أنجبوا ثلاثتهم من نساء مصريات.

-20-

شهق ملتاعًا إثر جرعة ماء بارد لطمت رأسه الذي غاب عن الوعي لساعتين، الصداع يطرق رأسه بمرزبة، الألم بمؤخرة رأسه نارًا مستعرة، مكبل الأطراف، يشعر بأنه مربوط إلى أرجوحة تدور به بغير انتظام، نتر رأسه بوهن ليزيح عن عينيه المحترقتين الزائغتين قطرات ماء تمنع عينيه من التقاط صورة واضحة لما حوله، مضت دقيقة بطول دهر قبل أن يشعر بنفسه يتأرجح في الهواء، مربوط بطرف حبل يتدلى من سقف حجرة غريبة لا تبدو كمنزل أو مكان صالح للسكنى، قاوم حرقة النار بعينيه وفتحهما عن آخرهما ليبصر أمامه رجلًا ينفخ دخان سيجارته لأعلى، يجلس بتحفز واضعًا قدمه فوق الأخرى، يتدثر بالسواد ويرتدي على كتفه جرابًا لمسدسه الذي يلمع تحت إبطه، ويلهبه بنظرات ملتهبات، ثم أبصر بجواره طاولة غرفة العمليات الجراحية أو هكذا بدت له من كثرة وتنوع الآلات الحادة الدقيقة بلونها الفضي اللامع المخيف، مختلفة الأشكال والأحجام، عاوده شيئًا من الوعي حين تبدّه بأن المكان يشبه مخزنًا أو ورشة مهجورة، وأن ثمة وجود لثلاثة أو أربعة أشخاص غيره وغير الجالس أمامه.

- أهلًا يا إسلام.

صوته جاد مخيف، نبرته حادة قاسية، عيناه لا ترمشان.

- أين أنا؟ ومن أنتم؟

- لست هنا لتوجه الأسئلة، أنت هنا فقط لتفعل أحد أمرين، تجيب على أسئلتي.. أو تصرخ من الألم حتى الموت.

ثم وقف يونس فجأة من على الكرسي وتحرك بطيئًا بقدمين تثقبان الأرض غيظًا وغضبًا، ثم أمسك بالجسد المتدلي بقوة، ودفعه دفعةً عنيفة في الهواء وهو يلفه حول نفسه، فتأرجح الجسد المتدلي في الهواء بعيدًا وهو يدور حول نفسه قبل أن يرتد إلى يد يونس مرة أخرى، دار دورة في الهواء كانت كافية ليرى شخصًا واقفًا غير بعيد يمسك بكلتا يديه كلبين مكممين، ضخمي الجثة.

ارتعدت فرائصه وشعر بأقدام الموت تتسلل إليه على استحياء، أراد أن يبتلع ريقه فلم يجد بحلقه ما يسعفه.

التف يونس خلفه وهو يربت على ظهره بحنق:

- أسد لي جميلًا واختار الألم والصراخ.

ثم أكمل دورته فأصبح أمام وجهه مرة ثانية، وقال باستمتاع:

- فأنا يا صديقي أعاني أرقًا لا يزايلني إلا بسماع الصريخ، ولا أهدأ إلا بالعذاب أنزله على أمثالك، ومتعتي الحقيقية وأنا أراقب أحدهم يلفظ أنفاسه الأخيرة على يدي بعد ليلة من العذاب ممتعة. قبل أن أقذف برمّته إلى كلابي الجائعة لتلتهم لحمه القذر وهو لا يزال على قيد الحياة.

هه؟ ما رأيك؟ هل ستساعدني لأستمتع قليلًا؟

أراد إسلام أن يتكلم، فوجد لسانه صلبًا كخرسان أسمنتي، وحلقه جافًا كمن ابتلع تراب عشر مقابر مجتمعات.

- ماذا تريد مني؟

أهمل يونس إجابته، وتوجه إلى الطاولة ينتقي من بين الأدوات المتعطشة للدماء فوقها، وفي كل مرة يتناول آلة ينظر إلى إسلام، ثم يهز رأسه كمن يقول لا إنها لا تناسب أريد شيئًا أكثر ألمًا.

صرخ إسلام بذعر:

- ماذا ستفعل بي؟ قلت لك سأفعل ما تريده.

كأنه لم يتكلم، ظل يونس ينتقي من بين الآلات ويفاضل بينها.

كانت دقائق على إسلام رهيبة مفزعة، لم يعد يحتمل، الخوف يعتصر قلبه، والفزع يتلاعب بأعصابه.

- أرجوك! لا تقتلني، سأفعل كل ما تريده.

- انتظر يا إسلام، لا تفسد علي تلك اللحظة الحميمية.

- أرجوك، سأفعل ما تريد، ارحمني، أرجوك.

تناول يونس أنبوبًا طويلًا بلاستيكيًا ينتهي إلى أحد أطرافه إبرة كالتي بالحقن:

- أتعرف يا إسلام، قبل أن أصير ضابطًا كانت لي هواية جميلة رقيقة، كنت أهوى سرقة الحيوانات، لم يكن يستهويني كلب ضال، أو قطة من قطط الشارع.

اقترب قليلًا من إسلام..

- بل كنت أهوى صيدها، أسرقها.. يا سلام على مزاجي الرائق.

اقترب أكثر..

- كنت أحبسها وأمنع عنها الأكل والشراب، حتى تصير هزيلة واهنة لا تقوى على مقاومتي وأنا أقوم بتشريحها حية.

أصبح أمامه مباشرة..

- لن تصدق إذا أخبرتك بأنني يومًا سرقت كلبًا من عند جاري، وبالطبع فلم أكن أمتلك وقتًا طويلًا قبل أن يأتي ليسأل عن كلبه عندنا أولًا بحكم أننا أقرب الناس بجواره.

ضحك يونس بنبرة سيكوباتية وهو يلتف ليقف خلف إسلام..

- فقلت في نفسي ماذا تفعل يا يونس؟.. ما العمل يا أبا الأوناس؟، إلى أن توصلت لحل عبقري.

قالها يونس وهو يحكم قبضته حول ساق إسلام من عند كعبه، رفس إسلام بنفسه في الهواء صارخًا مستغيثًا، وقاوم باستماتة ليحرر قدمه من بين يدي هذا المجنون لكن حركته الهائجة لم تكن أبدًا أقوى من قبضة يونس التي اعتصرت تحتها ساقه وبرزت عروق كف قدمه.

- اثبت يا سمسم يا حبيبي، لا تجعلني أغضب.

قالها يونس وجعل يغرز طرف الحقنة بوريد منتفخ بقدم إسلام حتي نجح في غرسها بالكامل، فحرره. ثم أردف:

- أرأيت؟ لقد أنسيتني أن أكمل لك، أتدري ماذا فعلت بالكلب حتى يصير واهنًا ضعيفًا لا يقوى على مقاومتي وأنا أقوم بتقطيع أوصاله؟ غرزت حقنة بقدمه تسرب دمه منها، ولم تمض إلا دقائق حتى أبصرت زرقة الموت تختطفه من بين أصابعي، حينها قمت إليه ومارست هوايتي.

كان آخر ما أبصره يونس قبل أن يستدير ويتوجه إلى الكرسي ليجلس مستمتعًا هو نظرة فزع تصرخ من عين إسلام وهو يحاول أن ينثني بجسده إلى الوراء حتى يتسنى له رؤية دمائه تتسلل خلال الأنبوب إلى الأرض، فظل

إسلام يستغيثه ويستجديه، فما قابل من يونس غير سيجارة أشعلها واضعا كلتا قدميه على الطاولة، مريحًا رأسه إلى الوراء في استمتاع ونشوة.

صرخ إسلام.. انفزع.. انهار.. استعطفه.. استحلفه.. صررررررخ.

- سيمو.. سيمو!! الله.. ما كل هذه الجلبة؟ دقائق يا سيدي وسينتهي كل شيء، ولا تقلق فأنا محترف، تلك كانت هوايتي يا رجل.

- ماذا تريييييييييد؟

أريدك أن تصرخ أكثر، صوتك طروب وأنت تصرخ، بدأت برودة اللذة تسري بأوصالي، يبدو أننا سنستمتع.

- لاااا، لا أريد أن أموت، ارحمني، كن شهمًا وأنزلني ستجدني كلبًا بين يديك.

نفخ يونس دخانه لأعلى وهو مغمض العينين مستجم قبل أن يرد باستهزاء وهو يحرك كتفيه:

- أنت الآن بالفعل كلبًا بين يدي يا سيمو.. لكنك تستطيع أن تجعل الأمور تمضي بسلام.

- نعم.. نعم، سأفعل كل ما تقوله لي، كل ما تريد معرفته سأخبرك به، أرجوك! ماذا تريد أن أفعل لتعتقني؟

صمت يونس قليلًا، ونظر إلى إسلام باهتمام، فشعر إسلام بأن حياته على وشك النجاة.

- أريد منك....

صمت يونس كأنه يفكر، ثم يحدث نفسه بتمتمة وإسلام يحترق، ثم يُتأتئ، وإسلام من الخوف قد تجمد.

- أرجوك انزع تلك الحقنة، ارتوت الأرض من دمائي، أرجووووووك سأموت، قل لي ماذا تريد؟

- حسنًا! إليك الاتفاق يا سيمو، كل ما أريده منك أن تصرخ وتولول كالنساء.

-ماذا؟؟؟؟ ألا تعرف الرحمة؟ مم خلقت؟؟.

- أنت لا تفهم، فأنت كلما صرخت كلما تلذذت أنا من ناحية، وكلما زاد الانفعال من تدفق دمك وبالتالي لن يمضي طويلًا قبل أن يتصفى علي الأرض، ومن ثم أباشر أنا عملي كفناااااان، هذا هو الفن الحقيقي.

- أرجوك، ارحمني، أشعر بالدوار يصيب رأسي، وبأنفاسي ألتقطها بصعوبة، فلتقتلني وتريحني.

- أوه! لقد نسيت.

قالها يونس وهو يخرج هاتفه من جيبه، ووضعه على الطاولة بعد أن داعب قليلاً شاشته، ثم قال:

- نسيت أن أضبط عداد الوقت التنازلي لكي أنتبه إلى الوقت المثالي، فأنا لا أريد أن أترك دماءك تسيل حتى الموت..

حينما تسمع رنة هذا الهاتف يا سيمو سأقوم إليك لننهي عملنا.

- حرام عليك. "صرخ إسلام". اقتلني.. اقتلني يا أخي وأرحني.

فجأة تغير الوضع، فقد انتتر يونس بقوة من جلسته، وألقى سيجارته بعنف، وأطلق صفيرًا من فمه عقبه نباح الكلبين خلف إسلام، وثوان مضت بعد الصفير وإذا بأحد الكلبين يخمش الأرض بمخالبه حتي استقر عند قدم

يونس، احمر وجه يونس وانتفخت أوداجه، ونفرت الشرايين محمرة بعينيه، وحين أزاح يونس الكمامة من فوق فم الكلب الذي ينبح ويرغد ويتطاير الزبد من بين أنيابه القاسية، نظر يونس إلى إسلام وهو يعتصر بيديه الطوق حول رقبة الكلب المتحفز للانقضاض، فاقترب يونس من إسلام الذي طاش لبه فزعًا حين رأى تحول يونس، وأنياب هذا الكلب الضاري، فأخذ يرفس الهواء بقدميه بلا طائل أو فائدة، في حين اقترب منه يونس، زاد نباح الكلب وزاد سيل لعابه، صار الكلب على بعد ذراع من إسلام، حينها توقف يونس بصدر ينتفض من فرط حماس وانفعال، وطفق الكلب يلحس دماء إسلام بنهم وشراسة.

صرخ الهاتف معلنًا انتهاء الوقت..

فزع إسلام، ونظر حوله وهو يصرخ ويصيح ويتأرجح في الهواء، شعر بالموت مطبق عليه.. يحاصره.. يحتضنه لينتزع منه روحه التي يغالب ليحميها. لا يدري من أي باب سيدخل إليه الموت، من دمائه التي تسيل حتى مرحلة الخطر، أم من هذا الغاضب الحاقد المجنون، أم من الكلب الجائع الذي يمني نفسه بوجبة طازجة دافئة، أم بجرح تصنعه تلك الأدوات المخيفة على الطاولة، أم من ذاك الغامض الذي يقف وراءه بمسدسه اللامع والكلب الآخر بيده.

أمسكه يونس من شعره وجذبه بقوة:

- أين أمير جماعتكم؟

لبث قليلًا قبل أن يفيق، فقد شعر بالخدر يدب في جسده، أو بالأحرى في جثته، فقد أصبح إلى الأموات أقرب منه إلى الأحياء:

- هل تقصد أبو حمزة؟

- أمامك دقائق قبل أن تغيب عن الوعي، حينها ستكون عندي بلا فائدة.. ستخبرني أين هو..

وستساعدني لأضع يدي عليه..

❋ ❋ ❋

-21-

دخل يوسف شقته، أغلق الباب بحنق، تجاهل تلك الرائحة، ثمة أنثى تعطرت بإفراط من أجل ذكرها، لكن رائحة خبيثة أزكمت أنفه لرغبة فاحت شهوة وشبقًا لم يفلح العطر في أن يواريها.

هكذا الأمر إذن؟..

تركت العابدة محرابها..

لم يفلح الحب بأن يقربها، لكن الشهوة فعلت..

تخلّت الراهبة عن رهبنتها التي دامت لأيام من أجل شبق دقائق..

تريد أن تصلي على محراب سريره..

أن تسجد بين فخذيه..

أن تبتهل فوق صدره..

وترتوي من مائه المقدس..

هل الجماع مع الزوج أفضل أم ركعتين قبل الغداء؟

ماذا لو كان الزوج لا يصلي؟

هل ستصل لرعشتها وهي بنت نبي وهو ابن جزمة؟

تهاوى يوسف على أقرب كرسي قبل أن يضع اللاب توب على المنضدة بإهمال، أرخى رأسه للوراء، ومدد ساقيه عن آخرهما، ثم أغمض عينيه ليستدعي الظلام ليبتلعه في إحساس مزيف بالهروب أو الاختباء.

مضت ثوان قبل أن تظهر شيماء بقميص نوم يطير بالألباب.

أين رداء الصلاة؟

ساعة لربك وساعة لقلبك؟

جلست على فخذه، لم يتحرك، قبلت فمه، انزعج من نفخ أنفاسها بأنفه، مسحت شفتيه بلسانها، فمسح بلل ريقها بكفه.

الحب كالنظارة الملونة فوق العين، ما إن تخلعها حتى تصدمك حقيقة الألوان الباهتة، ستندهش من كمّ كل هذه الثغرات التي طالما تغافلت عنها وتعاميت، وحده الحب يجعل من البرود نارًا مشتعلة، تلك التي تجعل وجبة الحياة ناضجة مستساغة مقبولة، وحدها المشاعر الملتهبة من تضفي للحياة نكهة شواء يسيل لها لعابك، وحدها الأشواق تجعل من بلل الشفاه بريق حبيبك مفعول كأس مترعة من خمر مسكر خلاب.

أن تعيش الحياة بحب هو ما يجعلك تحتمل كل عيوبها ومساوئها، هو ما يجعلك تحذف لا إراديًا تلك المشاهد الملولة الكدرة، هو الذي يجعلك تحتمل.. تغفر.. تنسى، إنه ببساطة يجعلك لا ترى ولا تشعر إلا من خلاله، وما أن يغيب، يغيب معه ذاك العالم الذي ألفته، تتبخر تلك الحياة التي عرفتها.

أكثر من خمس سنوات جعلت منه مدمنها، أدمن الرائحة بين خصلات شعرها، أدمن مذاق رقبتها، غمضة عينيها حين تضحك من قلبها، مذاق الأكل ممزوجًا بأصابعها.

لخمس أيام مضت، حرمته من جرعته التي اعتادها يومًا بعد يوم لمدة خمس سنوات..

الآن يعاني وحده من أثر الانسحاب بدمه..

- ما بك يا يوسف؟

- منذ زمن لم تنادني بيوسف؟

- ما هذه اللهجة؟

زوى ما بين حاجبيه، وغادر إلى غرفته، فتبعته:

- يوسف!

- نعم.

- مالك؟

- لا شيء.

- تبدو منزعجًا؟

- والله؟ جيد أنك تلاحظين؟

- ما هذه الطريقة يا يوسف؟ لماذا تتكلم معي هكذا؟

لم يرد، فتح ضلفته بالدولاب وجعل يبحث عن شيء يرتديه.

- لماذا لا ترد؟

ترك ما في يده ونظر إليها من خلف ضلفة الدولاب:

- استقلت من العمل.

- ماذاااا؟ ما الذي حدث؟

تنهد بضيق:

- مشاجرة مع الزفت.

- وما السبب؟

- غلطة، يتهمني بأني غائب التركيز هذه الأيام وهو ما كلّفنا غلطة فادحة تحتاج إلى وقت وتكاليف لإصلاحها. لم أطق نهره لي وزعيقه مهددًا بتوقيع جزاء، فاستقلت.

- ماذا تفعل؟ هل ستخرج؟

- نعم، سأذهب لطارق لأطمئن عليه.

- وأنا؟

- مالك؟

- أين أنا من حساباتك؟

- أنت أمامي بخير فيما أرى.

- هل ينبغي أن تصدمني سيارة لأسترعي انتباهك وتقضي معي الوقت كما تقضيه مع طارق؟

- لا.

- لماذا إذًا لم تعد تجالسني؟

- قلت في نفسي ألا أشغلك عن صلاتك.

- والله؟ أتسخر مني يا يوسف؟

سكت.

- لماذا لا ترد؟

- أخاف أن أتكلم تتهمينني بالسخرية.

- لا تخف، تكلم، ما بك يا يوسف قد تغيرت؟

توجه يوسف ناحية الحمّام:

- كان يومي مريرًا بما يكفي، لم تعد بي طاقة للكلام.

دخل الحمّام، وأغلق الباب أمام وجهها الأحمر غضبًا.

- لم تعد هذه عيشة تطاق، "تمتمت شيماء بصوت وصل إلى مسامع يوسف".

❋ ❋ ❋

-22-

فتحت شيماء فمها لتصرخ، صرخت صرخة طويلة جرحت حلقها من شدتها، لكن صوتًا لم يخرج، ظلت تصرخ وتصرخ، تشعر بصرختها كالسوط تجلد حنجرتها لكنها لا تسمع لها صوتًا، تريد أن تقاوم.. لا تستطيع، تريد أن تقوم من مكانها.. لا تستطيع، أطرافها مكبلة.. بل مشلولة، تشعر بأنها تجري بكامل طاقتها.. لكنها مع ذلك لا تغادر مكانها، تسارعت أنفاسها، سمعت صوت نبض قلبها يتزايد.. ويتزايد، صار الدم شائكًا تشعر بسريانه يجرح أوردتها، جيوش من النمل تنهش جسدها، صدرها يعلو ويهبط بجنون وعلى ذلك فقد شعرت بأن جبلاً رابضًا فوقه، رعشة أصابت جفنيها مع أن عينيها مغمضتان، الهواء حولها ولا تستطيع تنفسه، الفضاء مد بصرها لكن الضيق أحكم قبضته عليها، برودة المكيف لم تمنع عرقها الغزير من أن يغطي جسدها، لا أحد حولها.. فمن أين إذًا أتى هذا الصفير الحاد كصرخة ثمود؟

صرخت طويلاً "أعوذ بالله.. يا رب"، ما هذا المخلوق الخبيث الجاثم على صدري؟، ينشب مخالبه في رقبتي، يسيل زبد فمه على وجهي!.

يا رب.. صرخت.. أنجدوني.. تصرخ بجنون.. ساعدوني.. تصرخ.. وتصرخ.. وتصرخ.. لا.. ابتعد عني.. أنجدوني.. يا رب.. يا رب.

سكن كل شيء إلا من صوت رياح كفحيح الأفاعي، نظر إليها المخلوق الجاثم على صدرها بفرح، وسال لعابه من فمه المبتسم، رفع يده إلى أعلى وشد أعصاب أصابعه فلمعت مخالبه، ثم هوى بها إلى صدرها يخمشه

بسادية، صرخت صرخة من قوتها احتبست داخل حلقها، انتفخت أوداجها واتسعت عيناها واحمرت، ازرقّ لونها من نفس محبوس بصدرها، شعرت بمخلب هذا المخلوق ينتزع قلبها من بين ضلوعها، لازالت يده بداخلها كالمغناطيس تجذب روحها من كل عرق ووريد، أصاب الخدر أوصالها بالتدريج من الأطراف، تنسحب.. وتنسحب.. ناحية مخلبه، إلى أن شعرت بروحها كاملة داخل قبضته، فأغمض المخلوق عينيه بظفر، وتنهد بارتياح، وسحب قبضته ببطء من بين ضلوعها، في اللحظة التي تخرج فيها قبضته تخرج روحها معه.

نظرت إلى صدرها، فوجدته بخير، نظرت إلى غرفتها فوجدتها كما تألفها، لا تسمع إلا السكون، ولم تشعر إلا بالهدوء والارتياح، بحثت عن هذا المخلوق الذي جثم علي صدرها فلم تجد له أثرًا، تنهدت ببطء، وخالجها إحساس جميل براحة قلما شعرت بها بهذا الشكل "الحمد لله، يبدو أنه كابوس"، استلقت ثانيةً على سريرها، تنهدت كثيرًا "الحمد لله.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، تشعر الآن بالهدوء والسكينة وراحة تجتاز أوصالها، فاستسلمت لرغبة في استئناف نومها، حرّكت جسدها لتنام على جنبها اليمين..

صرخت كالمجنونة.. صرخت أكثر، ثمة أحد نائم بجوارها.. تصرخ.. تعرف هذا الوجه جيدًا.. تستغيث.. وجه يشبهها تمامًا.. بل هو وجهها.. تصرخ بأعلى صوتها.. لا تصدق.. إنها تنظر إلى نفسها.. تصرخ في وجه نفسها.. لكن الأخرى لا تفيق وكأنها لا تسمع شيئًا.. أصابها الجنون.. تصرخ أكثر.. لازالت نائمة.. لا.. ليست نائمة.. بل ميتة.

شعرت بأصواته.. ذاك المخلوق يضحك عاليًا.. يقهقه.. صار صوته صوتين.. ثلاثة.. أربعة.. تصرخ.. صار خمسة.. تصرخ عاليًا.. أصواته تمازجت، قهقهاته تكاثرت، الغرفة تموج بها، السرير يدور ورأسها يدور معه، شعرت بدوامة ابتلعتها، ترى أمواجا دائرية متداخلة، رأت مخلبًا لامعًا يرتفع إلى أعلى، علمت بأنه سيغوص في صدرها مرة أخرى.. فصرخت.

لكن تلك المرة خرجت صرختها من حلقها فشقت رداء الليل الساكن في هذه الساعة، انتفضت من نومتها وهي تضرب الهواء برجليها، اعتدلت في جلستها معتمدة على ذراعيها، التصقت ملابسها بجسدها من فرط العرق، تلهث كمن خاض سباق الحياة مع فهد جائع مفترس، لازالت في غرفتها، ولازالت على سريرها، التفتت يمينها بسرعة فلم تجد أحدًا، تحسست جسدها فتيقنت بأنها حية ترزق، شهقت قبل أن تذرف دموعها، ضمت صدرها على ركبتيها ودفنت بينهما رأسها وأجهشت ببكاء مرير اهتز معه جسدها، اعتصر الخوف قلبها، وكدر الفزع نومتها، لا تصدق بأنه كان كابوسًا، تكاد تقسم بأنه حقيقةً محسوسة، لقد شعرت بكل شيء، للآن لاتزال تشعر بضغط ثقل هذا المخلوق على صدرها، لقد رأت نفسها حقيقةً، نظرت إلى مكان يوسف الخالي بجانبها، وانتحبت باكية.

يقولون إن للموت علامات كأنه يرسل رسوله قبل أن يحل، فهل هذا الكابوس رسول الموت يعلن عن قدومه؟

❋ ❋ ❋

-23-

لم تعد هذه عيشة تطاق..

كانت تلك الجملة كضربة نقرت ناقوس الخطر بينه وبين زوجته..

لم يعد يحتمل بعد هذا الكابوس الذي حلّ على حياته فجأة ليكدّر صفو حيهما الرائق..

ضاقت به كل السبل وفرغت كل حيله..

لم تعد هذه عيشة تطاق..

كان سيحتمل أي شيء إلا أن تعلنها بصوت مسموع..

اللسان ترجمان القلب..

قلب شيماء فيما يبدو لم يعد يطيق هذه العيشة..

بشرفة في شقة طارق وقف يوسف شاخص البصر، شارد الذهن، منكسر النفس حزينًا، منطوي على حنقه وحزنه، تكالبت عليه الظنون، ولعبت برأسه الوساوس.

فأحس أنه من الأفضل أن ينسحب خطوتين إلى الوراء، شعر بأن تلك الخطوات ستعطيهما مساحة كافية للتفكير في مصير زواجهما، فقرر أن يلملم بعضًا من أغراضه ويبيت لليلتين أو أكثر بشقة طارق، إذا كان لا يستطيع أن يجبر الشرخ الذي ألمّ بعلاقته مع شيماء، فلربما يستطيع أن يلم بالشرخ الذي أصاب نفسه بعد الحادثة التي نزلت بطارق وآدم، أملًا في ألا يفقد كل شيء بالجملة.

* * *

شعرت شيماء بدوار برأسها، وفقدت السيطرة على أهدابها فصارت إلى النوم مجبرة، تشعر بوحشة قبر وهي بالبيت وحيدة بعد أن غادره يوسف يصطحب شنطة ملابسه بيديه.

بعد هذا الكابوس المفزع صارت تخشى أن تقترب من غرفة نومهما، لكن النعاس لما يمهلها أن تقرر، فأطبق عليها النوم بسلطانه، فغاصت في النوم رغمًا عنها ورغمًا عن الإضاءة الساطعة بعد أن أضاءت أنوار الشقة كلها خوفًا، وراحت وهي جالسة على كنبة بغرفة الاستقبال في نوم عميق.

سمعت صوت فحيح الأفعى، ففزعت..

لن ينال منها هذه المرة، قرّرت..

لكن فيما يبدو أنها أضعف من أن تقاومه..

هنا شعرت.. بكل شيء.. كما شعرت به من قبل..

تلك الدوامة.. الألوان المتداخلة.. الدوائر التي تزيغ ببصرها وتدوخ منها رأسها، شعرت بجسدها يدور بالهواء.. كأنها وسط إعصار غاضب.

سمعت قهقهاته القبيحة، وأصواته الممزوجة المتداخلة وهي تتكاثر أكثر وأكثر..

صرخت.. بلا صوت..

استغاثت.. بلا مغيث..

شعرت بالموت قد فرض سيطرته.. اليوم لا مهرب منه.. شعرت بالنهاية.. الموت..

نفس المخلوق.. نفس النظرة.. نفس اللعاب.. نفس السادية.. نفس المخالب.. نفس الموت.

* * *

فتحت عينيها ببطء، تنظر من خلال خصلات شعرها المبعثر على وجهها، الفضاء حولها مد البصر، لا تدري أين هي الآن، لكنها شعرت يقينًا بأن هذا الفضاء لا يمت للمكان الذي تعيش فيه بصلة، لا يمت حتى إلى الأرض، ذاك فضاء من عالم آخر، ليس من عالمها الذي فارقته.

فتحت عينيها أكثر، وشعرت بجسدها الممدد على كيان بارد لا تعرف ما هو، هل هي أرض ناصعة البياض، أم لوح بلور بارد؟

مدت يدها ولمست شعرها المبعثر خلف رأسها، فوجدت نفسها ممددة على بطنها، لكنها لم تعد تشعر بثقل جسدها، ولا بالوهن الذي أصابها منذ قليل.

"يبدو أني قد فارقت الحياة، ويبدو أني الآن أعيش بروحي دون جسدي".

هل هذا هو البرزخ، أم السماء؟..

لا أظنه القبر، لم يكتشف أحد موتي بهذه السرعة ليدفنني..

قطع عليها تلك الخواطر صوت خطوات هادئة تأتي ناحيتها، فنظرت أمامها لتجد هالة من نور ساطع أصاب عينيها بوخزة حتى خفت النور تدريجيًا وتلاشى إلى أن اختفى.

لازالت عينيها تعاني من صدمة وهج النور، فحاولت أن تلتقط صورة لما يتم حولها فلم تستطع، فضيقت عينيها قليلًا ونظرت إلى الكيان الذي ظهر إليها من أسفله.

قدم بشرية؟؟؟

هل هذا أحدهم؟ أحد ملائكة القبر؟؟

لا.. فأنا لست في قبر.. أنا فيما يبدو في السمـ...

هه؟

السمااااء؟؟!!

هل أنا في حضرة....

ربنا؟!

إلى هنا أخرست شيماء خواطرها خوفًا وإجلالًا..

لم تشعر بالرجفة تصيبها كما توقعت، ولم تلبث أن تذكرت أنها الآن روح لا جسد..

هل للإله أقدام بشرية؟ بالطبع لا.. أم أن كل ما تعلمناه كان يشوبه الخطأ؟

مهلًا..

بجوار قدميه عصا..

الخالق يتوكأ على عصا؟؟!!

لبثت قليلًا على حالتها تلك قبل أن تتجرأ على رفع بصرها قليلًا..

فغر فاها دهشةً..

جلباب؟؟!!

رأت الإله يرتدي جلبابًا.. ناصع البياض..

هيأته بشرية تمامًا.. هل هو بشري؟ أم أنه تجلى في الهيئة البشرية حتي يتسنى لي أن أراه؟..

أراه؟؟..

بحرص رفعت عينيها قليلًا..

لحية فضية..

عجوز؟؟!!

اخرسي أيتها الخواطر، فالله يسمعك.

تجرأت أكثر.. رفعت عينيها..

بشرته سوداء!!!!!!!

لاااااااا.. لقد رأت اليوم عجبًا..

الإله يقف أمامها، بجسد بشري، يتوكأ على عصا، يرتدي جلبابًا، عجوز ولديه لحية بيضاء، وبشرته سمراء.

سيطرت على أفكارها وخواطرها، فهي تعلم بأنه سيسمعها حتى ولو لم تتكلم..

لكن مهلًا..

هل سيسمعها حقًا كما تعلمت؟..

فمنذ أن ماتت وهي تجد الأمر خلاف كل ما تعلمته.

رفعت عينيها قليلًا..

يبتسم.. ولديه أسنان بيضاء مصفوفة..

أكلها الفضول، فتجرأت أكثر..

عمامة بيضاء..

هه؟

❋ ❋ ❋

-24-

- مرحبًا بك يا عاتكة!

- أنت؟

- نعم أنا.. من كنت تظنينني؟

- هه؟

شعرت شيماء بالحرج والغباء، فتمالكت نفسها وجاهدت لتحافظ على شيء من ماء وجهها:

- لم أكن أظنك أحدًا يا!!!... "احتارت كيف تناديه" يا جبريل!

فابتسم لها:

- ألم أقل لك بأننا سنتقابل ثانية؟

أومأت برأسها بحيرة، قبل أن تسأله:

- أين أنا؟ هل أنا ميتة؟

ضحك جبريل وقهقه:

- لا.. لم يحن موعدك بعدُ.

- أين أنا إذن وماذا أفعل هنا إن لم أكن ميتة؟

- أنت هنا لنقابل صديقًا.

- كيف وصلت إلى هنا؟ أشعر بأني فارقت جسدي وصرت روحًا.

- هذا صحيح.. لقد فارقت جسدك، وصرتِ طيفًا.

-....؟؟!!

- ألم تسمعي من قبل بما تسمُّونه بالإسقاط النجمي؟

- سمعت.

- أنت الآن تختبرينه بنفسك، لكن لولاي أنا ما استطعت أن تفعلينها، فأنا خادمك وقرينك في هذه الرحلة، أنا الذي جذبت طيفك لأمر بك إلى هذا العالم حين رأيت أنك مهيأة ومستعدة.

- ولماذا أتيت بي إلى هنا؟

- عاتكة! أنت سريعة النسيان، ألم أخبرك بأننا سنتقابل؟، أنت هنا من أجل درسك الأخير.

- درسي الأخير؟؟!!.. أين أنا؟

وضع جبريل سبابته على شفتيه المزمومتين أن صه، فسكتت شيماء بوجوم، وأشار لها بكفه أن اتبعيني، فتبعته.

وصلا إلى ربوة عالية، فتسلّقاها، خلف تلك الربوة المكان واسع مترامي الأطراف، معشوشب، يغلب على منظره الخضرة والزرقة والبياض، كما لو أن كل شيء ينير بذاته، يبرق تحت بريق الأشعة لكن دونما شمس، الأعشاب الخضراء تلمع بجمال تحت قدميها الحافيتين، وغير بعيد جدول ماء واسع رائق تنعكس عليه أشعة تتكسر على أمواجه الخفيفة فلمعت كالآلاء، وعلى شاطئه تربض شجرة صفصاف شديدة الخضرة، مورقة، طويلة الأغصان كمظلة عملاقة، مربوط إلى جذعها حبل ينتهي طرفه إلى قارب صغير يتراقص مع موج النهر، وتحت ظلّها الممدود كرسي.. كرسي هزّاز.

أشار جبريل ناحية الكرسي الذي يهتز:

- ذاك هو صديقنا.

* * *

ملمس العشب الناعم يدغدغ قدميها الحافيتين، النسيم حولها رقراق لطيف، الهواء بارد منعش، وتسري في الجو رائحة هادئة تبث السلام في نفسها، يشبه رائحة يود البحر لكنه غير ذلك، يشبه عبير الزهور في الربيع لكنه غير ذلك، يشبه رائحة النسائم في ساعات الفجر الصافية لكنه غير ذلك، فبدا لها أن الهواء حولها كما لو أنه يتنفس ويتجدد.

لم تر أبدًا السماء بهذا الصفاء، وبتلك الزرقة الخلابة، وبتلك الهندمة التي توزعت فيها قطع من السحاب الأبيض الصغير، ومن خلف قطع السحب قرص الشمس بلون الذهب النقي، كبير إلى حد عجيب مفرح بمجرد النظر إليه.

تقدمت ببطء وهي تتلفّت في كل اتجاه تُملّي عينيها من جاذبية وسحر المكان، وتتّبع لغز ذاك الضباب الخفيف المتقطع الذي لا يتجاوز ركبتيها يكسو بلطف الأرض في مزيج باهر مع خضرة العشب.

مال جبريل على أذنها هامسًا:

- هل أعجبك المكان؟

أومأت له برأسها في سعادة الأطفال، فأردف وهو يشير ناحية الجالس على الكرسي:

- هو الذي أوصى بتهيئة المكان بهذا الشكل.

زادها قوله دهشةً فوق دهشتها:

- هو الذي هيأه؟

فغمز لها جبريل بعينه أن نعم، فسألته:

- وكيف هذا؟

ضحك جبريل وفتح فمه ليتكلم، فانتظرت شيماء الكلمات تخرج من فمه، فقال:

- هل ترغبين في كوب شاي بالقرنفل؟

-؟؟؟

- عمك جبريل يعد كوبًا من الشاي لن تذوقي له مثيلًا، خلطة سحرية لا يتقنها في العالمين سواي.

ثم تركها جبريل تغيب في ذهولها، وعاد بعد قليل يحمل كوبين زجاجيين من الشاي، قدم أحدهما لشيماء، فتناولته ورشفت منه بحركة آلية، وما أن تذوقته حتى اتسعت عيناها إعجاباً بمذاقه:

- طعمه جميل جدًا، لم أشرب مثله، أكيد أن هذا الشاي لا يوجد مثله في عالمنا.

فرد عليها جبريل بزهو:

- لاااااا، هو هو نفس الشاي، لكن كما قلت لك تلك خلطتي السحرية.

- وماذا يجب علي أن أفعل لكي أحصل على سر تلك الوصفة السحرية؟

ارتشف جبريل من كوبه، ثم قال:

- لا شيء سوي أن تطلبي؟

- إذن؟

- تمام، السر يا سيدتي، معيار الشاي الذي يناسبك أضيفي إليه أربع حبات من القرنفل، ولمستي السحرية هي أن أضيف أربع حبات من حبة البركة، واستمتعي بسحر الشاي.

- ساحر فعلًا. "مازحته".

ارتشفت من كوبها عدة رشفات قبل أن تسأل جبريل بحماس:

- جبريل هل تستطيع أن تأخذني لأقابل رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام؟

- صلى الله عليه وسلم، هل أنت مستعدة لذلك؟

ردت بحماس ولهفة، ودون انتظار:

- نعم مستعدة.

- لا! لست مستعدة بعدُ.

- هه؟

- دونًا عن الجميع، فرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لو كنت مستعدة حقًا للقائه فإنه بنفسه سيأتي إليك.

بهتت شيماء بردّه.

جلست وجبريل على الأرض المعشوشبة، يتأملان صديقهما المتأمل يهتز مع كرسيه، بشعره الخشن وعينيه الضيقة وشفتيه الغليظتين، يسند خده الأيمن على قبضة يده، ويرتكز بكوعه على ذراع الكرسي، يغوص بنظرته في اللا شيء، ومن وقت لآخر تبدو منه بعض غمزات بعينيه، أو إيماءة خفيفة برأسه، أو حركة طفيفة من شفتيه كالتمتمة، فوضح جليًا أنه مشغول الفكر، يتباحث ويتناقش مع نفسه في موضوع يشغله.

- ماذا يفعل؟

سألت شيماء جبريل، فأجابها بصوت خفيض:

- يتأمل.. يفكر، هذه هي عادته دائمًا، لا يضيع وقته إلا في القراءة والتفكير والتأمل.

- ومتى سينهي تأمله؟

- لا أدري، ربما الآن، ربما بعد ساعة، ربما بعد يوم، لا أدري.

مالت شيماء على أذن جبريل توشوشه:

- وهل سنظل هكذا حتى ينتهي هو؟

أومأ لها جبريل برأسه إيجابًا مع ابتسامته التي تظهر أسنانه البيضاء، ثم نام جبريل بجانبها على الأرض واضعًا كلتا يديه تحت رأسه، وأغمض عينيه وهو يهز قدميه باسترخاء.

مضى وقت طويل لم تشعر به شيماء وهي مشغولة الفكر في هذه الجولة وهذا المكان، وبجبريل النائم بجانبها يترنم باستمتاع بصوته الخفيض الخشن ببعض أبيات تعرفها شيماء جيدًا، من قصيدة البردة:

محمد سيد الكونين والثقلين

والفريقين من عرب ومن عجم

نبينا الآمر الناهي فلا أحد..

أبر في قول لا منه ولا نعم

هو الحبيب الذي ترجي شفاعته..

لكل هول من الأهوال مقتحم

دعا إلى الله فالمستمسكون به..

مستمسكون بحبل غير منفصم

فاق النبيين في خلق وفي خلق..

ولم يدانوه في علم ولا كرم

وكلهم من رسول الله ملتمس..

غرفًا من البحر أو رشفًا من الديم

وواقفون لديه عند حدهم..

من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

فهو الذي تم معناه وصورته..

ثم اصطفاه حبيبًا بارئ النسم

منزه عن شريك في محاسنه..

فجوهر الحسن فيه غير منقسم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف..

وانسب لقدره ما شئت من عظم

إلى أن وصل إلى:

أبان مولده عن طيب عنصره..

يا طيب مبتدأ منه ومختتم

قطع هذا الجو الساكن الهادئ قهقهة متقطعة بطيئة من صديقهما المتأمل الجالس على الكرسي، ثم تمطع فاردًا ظهره ممددًا ذراعيه بأريحية،

فيما يبدو أنه قد أنهى تأمله، أو أنه قد وصل للفكرة التي شغلته كل هذا الوقت.

فاعتدل جبريل جالسًا وهو يغمز شيماء بعينه، ففهمت شيماء من غمزته أن صديقهما المتأمل قد أنهى تأمله، كان ذاك حين استدار صديقهما وأدار الكرسي معه، وقال مبتسمًا بصوته المعروف، ونبرته الشيقة، وكلماته التي يستهل بها أي لقاء:

- "يا أهلًا بيكم".

كادت شيماء أن تصرخ من الفرحة، فهي تعرفه، تعرفه جيدًا، تعرفه من كتبه، من مقالاته، من لقاءاته التلفزيونية، من برنامجه الشهير الذي تعشقه منذ صغرها، برنامج العلم والإيمان:

- دكتور مصطفى محمود!!!

ضحك الدكتور مصطفى محمود بطريقته الجميلة:

- أهلًا بك يا عاتكة.

تلعثمت شيماء، ذهبت الفرحة بلبها، فلم تعد تدري ماذا تقول وبماذا تجيب، ولكنها قبل أن تجيب بشيء سمعت الدكتور مصطفى محمود يدعوهما وهو يشير إلى القارب:

- تفضلا، سأصحبكما في نزهة جميلة.

نظرت شيماء إلى جبريل، كأنها تلتمس موافقته، فابتسم لها جبريل قبل أن تتقدم هي نحو القارب وتركب، فتبعها جبريل، وتبعهما الدكتور مصطفى محمود، جلس الجميع، وتولى العالم العبقري بنفسه التجديف بالقارب، ليشق القارب صفحة الماء الرقراق تحت أشعة تكسرت على حرف أمواجه

فصارت كاللؤلؤ المنثور، وطفق يجدّف، وصوت المجدافين ممزوجًا بحركة القارب وسط الماء يحدث خريرًا هادئًا ترتخي له الأعصاب، وتهدأ به النفس.

- أتعرفني يا دكتور؟

- نعم أعرفك، وأنا سعيد جدًا بمقابلتك، وسعيد جدًا ببحثك عن سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وعن نشر حقيقة التوحيد الخالص بمصر القديمة.

تورّد خداها حياءً، وابتسمت سعادةً، ثم قالت:

- أنا أسعد يا دكتور، أسعد جداااا، لا أصدق بأني التقيت بك، هذا شرف كبير لي.

ضحك العالم الرائع مرة أخرى بقهقهاته الجميلة:

- بل الشرف لي يا بنت النبي، بهذه المناسبة، هل تعلمين بأنني أيضًا من نسل النبي؟

- بالطبع أعرف، أنت لا تتخيل بأنني عاشقة لسيرتك ولكل أعمالك.

- أنا أيضًا سعيد جدًا بعملك وببحثك الرائع في نسب النبي محمد المصري، ولهذا أنت هنا، ذكرتيني بأيام جميلة مضت كنت أقضيها برفقة الدكتور المهندس سيد كريم، أتعرفينه؟

- بالطبع يا دكتور، بل أعوّل من مجمل مراجع بحثي على كتابيه؛ "كتاب أخناتون- عقيدة التوحيد، وكتاب لغز الحضارة الفرعونية".

قالتها بسعادة غامرة وشعرت بإطراء من نظرة الإعجاب التي تلمع بعين الدكتور مصطفي محمود، فرد عليها:

- كان باحثًا نشيطًا جدًا في الحضارة المصرية القديمة، وكانت لديه ببيته مكتبة عملاقة، تحوي مراجع وكتبًا مثيرة عن الحضارة المصرية القديمة، فكنا نقضي الساعات الطوال بمكتبته نقرأ ونتباحث ونتناقش عن العقيدة المصرية القديمة وعن إدريس نبي المصريين وعن النبي محمد عليه الصلاة والسلام ابن المصريين.

ثم أردف:

- "التوحيد على أرض مصر قديم.. جدًا.. ليس كما يظن البعض أنه بدأ بإخناتون وإنما قبل إخناتون وقبل أمنحوتب وقبل مينا..

الرسالات بدأت على أرض مصر منذ اثنتي عشرة ألفًا وخمسمائة سنة.. هكذا يقول المؤرخ مانيتون..

بدأت بأوزوريس "وهو النبي إدريس" عليه السلام.. الذي جاء إلى مصر بالتوحيد.. وكان أول من علّم المصريين الكتابة بالقلم ولبس المخيط ومبادئ الفلك والتنجيم وضبط الفصول والزراعة والتقويم الشمسي.. وعلّمهم أن هناك خالقاً واحدًا وأن من يموت منهم سوف يبعث ثم يقف بين يديه ليحاسب ثم يصير إلى الخلود في نعيم أو في عذاب حسب أعماله.. وكعادة الشعوب القديمة تحول أوزوريس بعد موته إلى أسطورة وأصبح إلهًا ونُسجت حول سيرته الملاحم والأغاني والأناشيد.

والمهندس سيد كريم في كتابه المثير "عقيدة التوحيد" يرى أكثر من هذا.

إنه يعتقد أن الآلهة أتوم.. وأوزوريس.. ونو.. هم آدم.. وإدريس.. ونوح.. فما قيل عن إدريس هو نفس ما قيل عن أوزوريس.. فإدريس في التاريخ _كما قلت_ هو الذي علّم الناس الكتابة بالقلم ولبس المخيط ومبادئ الفلك

والتنجيم وضبط الفصول والزراعة والتقويم الشمسي.. كما كان الإله نو.. قد وصف بأنه إله الماء والفيضان ومنقذ البشرية.. وأتوم أو آدم هو أول من نزل الأرض في مبدأ الخلق.

وهو يقول إن أوزير قد يكون هو "عزير" النبي الذي جاء ذكره في القرآن وفي التوراة وهو الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه فكان المعجزة التي تحوّلت إلى أسطورة.. ثم كالعادة تحوّل إلى إله.

ولسيد كريم نظرية خاصة في التعددية الواضحة في آلهة الفراعنة الذين بلغ عددهم في إحصائية العالم بروجش ألفين وثمانمائة إله.. إن هذا العدد في الأصل ليس آلهة وإنما أسماء وصفات وأفعال للإله الواحد.. ويدلل على ذلك بأن كلمة إله في الهيروغليفية "نتر" معناها اليد القوية فهي صفة وليست شخصًا.

والدليل الآخر والأهم هو ما جاء في وصف هذا الإله الخالق في متون كتاب الموتى وفي بردية تحوت وفي بردية ختيا وفي نشيد إخناتون.

ونكتفي بهذه الفقرات التي تعبر بأفصح من أي دليل:

في البدء كانت الكلمة والكلمة مصدرها الإله.. إله واحد هو كل شيء كان وكل شيء كائن وكل شيء سيكون.. محال على من يفنى أن يكشف النقاب عن سر ما لا يفنى.. عرشه في السماء وظله على الأرض.

فوق المحسوسات ومحيط بكل شيء.

موجود بغير ولادة.. أبدي لا يموت.

ويقول الإله في كتاب الموتى:

خلقت الكائنات وأودعت في كل منها صفة من صفاتي..

خلقت كل شيء وحدي ولم يكن بجواري أحد..

بكلمتي خلقت ما أريد..

خلقت الأرض وما تحتها والسماوات وما فوقها والمحيطات وما في أعماقها والجبال وما في بطونها.

وبردية أخرى تصف هذا الإله الواحد:

هو في مخلوقاته وهو يعلو عليها جميعًا.

هو يرى ببصره كل شيء ولا تراه الأبصار ويسمع كل همسة ولا تدركه الأسماع.

وفي كتاب الموتى نقرأ هذه الصلاة:

أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء.

وفي متون البرديات القديمة تبدأ القصة هكذا:

في البدء كان الظلام والعماء والسكون ولا شيء سوى المحيط.

ومن باطن هذا المحيط المظلم خلق الله نفسه بنفسه وخرج ليفيض النور والحركة على الوجود وكان أول ما خلق.. هم ملائكة التكوين الثمانية.. خلقهم من أنفاسه ليكونوا حملة عرشه فوق الماء.. والعرش كان هو التاسوع لهؤلاء الثمانية المقدسين.

- وبالمناسبة فإن 9 رقم مقدس عند المصريين وكذلك رقم 7 لأن الله خلق كل شيء في ستة أيام ثم استوى على قمة الوجود في اليوم السابع.

ثم أردف الدكتور مصطفى محمود:

- مثل هذا التراث الديني القديم منذ اثنتي عشرة ألف سنة لا يمكن أن يأتي من فراغ..

ومثل هذه النبرة الصافية للتوحيد الذي لا يشوبه شرك لا يمكن أن تخرج إلا من مشكاة أنبياء نزلوا بمصر وساحوا فيها ينشدون هذه الأنغام الملائكية.. ورسلًا لا نعرفهم ولم يأت لهم ذكر في الكتب السماوية..

ألم يقل الله لنبيه في القرآن عن الرسل:

"منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك"

فأي غرابة في هذا؟

أوليس التحريف والتبديل هو آفة الكهنة في كل زمان؟..

وهم الذين حوّلوا هذا الركب من الرسل إلى آلهة.. ونسجوا حولها الأساطير وحوّلوا الأسماء والصفات الإلهية إلى أرباب بلا عدد.. ليكون لكل رب قرابين ومعابد وضرائب تُجبَى من السذج والبسطاء.. ثم كالعادة يدخل كل هذا إلى جيب الكهنة.

ومن هذا الصراع جاء هذا التاريخ المختلط الذي نقرأه زاخر بهذا الكم الهائل من الشرك والتعدد والوثنية، وهذه المعارك التي خاضها بعض الملوك الشرفاء بهدف انتشال العقيدة والعودة بها وبالبلاد إلى التوحيد.. مثل مينا وأمنحوتب وإخناتون..

وبعد كل انتفاضة يعود الكهنة فينتصرون بمؤامراتهم.. ولا يجد الموحدون مخرجاً إلا الهرب والهجرة والفرار بأنفسهم وهذا ما تحكيه البرديات عن.. السابي.. الذين فروا إلى الجزيرة العربية بعد قتل إخناتون هربًا من الاضطهاد..

والسابي هم الذين جاء ذكرهم في القرآن باسم الصابئة:

"الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى"

فجعلهم الله من الناجين يوم القيامة..

وكذلك قبيلة بنو عبد مناف.. فهؤلاء مهاجرون من منف.. ومثلهم قبائل جرهم الذين لجأت إليهم أم إسماعيل.

لقد كانت مصر دائمًا أرض توحيد.. وكانت مهد كل الديانات..

ولذلك أطلق عليها الفراعنة اسم جب تاه "EGYPT" بالهيروغليفية أي أرض الله.

وهي عندنا كنانة الله في أرضه.. وهي المحروسة وأهلها في رباط إلى أن تقوم الساعة..

وجنودها كما قال النبي عليه الصلاة والسلام هم خير أجناد الأرض.

ثم أردف:

- "إن مصر كانت دائما أرض التوحيد.. وإن التوحيد بها قديم قبل إخناتون.. وإن جميع الأنبياء مروا من هنا.. وإن أول ما جاءت لا إله إلا الله.. جاءت من هذه الأرض..

وأن التعددية الوثنية كانت صناعة الكهنة وحرفة الساسة..

وأنها لم تكن قط أصلاً من أصول العقيدة المصرية.."

ثم أضاف:

- "ونجد في التاريخ المصري القديم كل شيء.."

نجد مرحلة الإقطاع ونجد الثورة الشيوعية الأولي التي أتت في نهاية الأسرة السادسة عام 2280 قبل الميلاد وطاردت رجال الدين والمثقفين في منف وأدت إلي الانهيار الحضاري الأول..

وإلى هجرة الألوف من العلماء والمفكرين إلى الجزيرة العربية وبابل وفلسطين هاربين من الاضطهاد..

والذين استوطنوا الجزيرة العربية عُرفوا بقبيلة بني مناف نسبة إلى "منف"

ثم توقف الدكتور مصطفى محمود عن الكلام حين دوى على غفلة صوت قوي..

صوت رنة هاتف!!!

اندهشت شيماء لمّا سمعت تلك الرنة، وترددت ببصرها ما بين الدكتور مصطفى محمود وما بين جبريل، مستنكرة، ثم قالت:

- هل في هذا العالم هواتف؟

تبادل الدكتور مصطفي محمود نظرة بابتسامة مع جبريل، قبل أن يرد عليها جبريل:

- إنه هاتفك يا عاتكة.

- هاتفي؟؟!!

قالتها بتعجب، وهي تقلب في جيوبها بحثًا عن الهاتف الذي زاد صريخ رنته:

- أين هذا الهاتف اللعين؟ لا أجد شيئًا في جيوبي.

رد عليها جبريل:

- إنه بجوار رأسك.

تحسست شيماء رأسها:

- لا.. لا يوجد شيئًا بجـ...."[1]

فجأة استيقظت شيماء من نومها تحت زن هذا الهاتف اللحوح لتجد نفسها على سريرها مرة أخرى، وسرعان ما توارى انزعاجها _ من الهاتف الذي قطع عليها تلك النزهة الخيالية _ وراء شعورها بالحيرة، فهي تشعر بريقها لازال ممزوجًا بمذاق الشاي بالقرنفل.

❋ ❋ ❋

"1" حوار الدكتور مصطفى محمود مستفاد بجملته ومنقول بالنص من كتابه الشيق «عالم الأسرار»، باب «كل الأنبياء مروا من هنا» – ص 15: 21– صادر عن دار أخبار اليوم – العدد 331.

-25-

محاضرة بني مناف أجداد النبي محمد عليه الصلاة والسلام.. مدينة منف المقدسة..

أخناتون! ذاك العابد الزاهد، الصوفي المحب، المتسامح الكريم، المنشد العظيم، لم يدر له بخلد أن دعوته التي تنبأ لها بالأزلية صارت مهيضة الجناح أمام أنياب أعداء دعوته من كهنة آمون الضارية، لم يكن يعلم حين تفرّغ للعبادة والتأمل أن ثمة سرطان في أوصال دولته قد تفشي، وأن ثمة وحش غادر بين ربوع معابد آمون قد استفحل.

تربى أخناتون في كنف أبيه أمنحتب الثالث عجوز مريض، وبين أحضان أم صارت رغمًا عنها هي الحاكمة الآمرة والناهية لدولة ترامت أطرافها عظيمة مهيبة مخيفة، وسط الجواري والوصيفات ترعرع، فصار طبعه لينًا مليحًا، وأصابه مرض في صباه ألزمه الفراش وأكسبه الوحدة، فما كان من الوحدة إلا وقد لونت طبعه بصبغة الحياء واللين، فقضى الساعات بالقصر الملكي بطيبة وحيدًا جالسًا يتأمل جمال الطبيعة، مدهوشًا بتلك الجنة التي تحيط بالقصر، مفتونًا بتلك الأنهار الرائقة، وذاك الماء غير الآسن، هنا أطيار، وهناك أزهار، وبينهما تلعب الغزلان، وحولهما الأرض مفروشة برداء الخضرة.

الكل تحت رداء السماء يرفع هامته في أدب وخضوع، يحتاجون الدفء يسري بأوصالهم، يحتاجون النور يضيء دروبهم، إلى تلك الأشعة لتكتمل الحياة، الكل يريد.. الشمس.

تلك الذهبية التي تتوسط السماء، مستديرة كالعين ترعانا، يأتي الظلام حين تغيب، والنور حين تشرق، واحدة ليس لها منافس، موجودة دائمًا لترسل بالخير أشعتها.

هكذا هو الإله..

تضافرت أسباب نشأته لتجعل من ذاك الصبي مرهف الحس، لطيف المشاعر، رقيق القلب، فنانًا متأملاً، للطبيعة والجمال عاشقًا، دمث الخلق حيي كحياء العذراء في خدرها.

سبحان الخالق المبدع، كل ما في خلقه يشير إلى وحدانيته، يبث في النفس الحب والسلام والانسجام. كانت تلك رؤيته التي تبنّاها، وغنوته التي صار يترنم بها.

حين تولى أمنحتب الرابع "إخناتون" الحكم صبيًا، على استحياء رمى ببذور دعوته للدين الجديد، دين السلام.. الحب.. الجمال.. الوحدانية، خاف من بطش كهنة آمون الذين سيطروا على قلوب الناس وعقولهم، كهنوت النفاق، من ذا الذي يقول بأن الإله بعيد؟ من يقول بأنه باطن لا نشعر به؟ باعدوا بين الناس وبين صحيح العقيدة فدب الشرك وكثرت البدع وانصرفت قلوب الناس ووجوههم إلى غير باب الله الواحد.. من يقول إن بيننا وبين الخالق وساطة كُهّان يُثقلون كاهلنا بقرابين تدخل جيوبهم وتملأ بطونهم؟

رويدًا رويدًا دعا إخناتون إلى عبادة الله، الواحد، ورمز له بقرص الشمس، فهو ظاهر واضح مثلها، عال في السماء، واهبًا للنور والضياء، تراه العيون حين تتأمل خلقه، وتشعر به الصدور حين تتحسس دفئه.

تلك العاصمة طيبة، لا تصلح أن تكون أرض الإله، تلك التي دنسها الكهنة داخل معابد آمون الإله الباطن الخفي، الدين الجديد يحن إلي منبع الأديان، يحن إلي منف، شدوا الرحال إلي منف وابنوا لأتون معبدًا ولنبيكم منزلًا، وهيأوها لتعود كما كانت دائمًا مركزًا لنشر الدعوة في البقاع المعمورة.

بما جُبل عليه من رقيق حس ولطيف نفس ورحيم قلب فقد تقلب إخناتون بين صلاة وتضرع وتصوف أنشد فيه أجمل ما قيل في حب الله وتوحيده، أهمل الدولة المهيبة تتفكك، ومنح العدو المتربص فرصة ليتجرأ، وغفل عن يد كهنة آمون التي تجمع الحطب لتشعلها نارًا تأكل الدين الذي جعل الآلهة إلهًا واحدًا وتحرق نبيه وأتباعه.

"ما العمل بعد يا حبيب الإله الواحد؟".

التف حوله من بقي، فمن أتباعه من ارتدّ ومنهم من اختار الجانب الآمن في أحضان كهنة آمون وأتباعهم، ومن تبقى صار لا يأمن على حياته، وإن عاش صار لا يأمن على الكرامة، فاستقر رأيهم على الهجرة.. الهجرة إلي بلد الله الحرام، إلي "با كا" التي بناها نبيهم إدريس.

هناك في البلد الحرام نزلوا منزلًا كريمًا في البلد التي بناها إدريس المصري، وعمّرتها هاجر المصرية.

فهاجروا إليها، فكانوا وسط بلدهم وأبناء عمومتهم من أصحاب اللسان العربي الجديد الذي تكلم به إسماعيل ابن المصرية وزوج المصرية، فأطلقوا على المصريين الجدد المهاجرين من أرض منف "بني مناف".

امتلأت الجزيرة بالمصريين.. من بني مناف المهاجرين من منف، وبني شمس من أتباع الرسالة التي رمزت للإله بقرص الشمس وأسموه تارة رع وتارة آتون، وبني كنانة الملقبين بذلك نسبة لأرض الكنانة مصر.

كان من بني مناف رجل لقبوه بال "كناني" نسبة إلي "كنن" الكلمة المصرية القديمة والتي بمعني جعبة السهام، ذاك اللقب الذي أطلقوه على مصر بأنها كنانة الله في أرضه، فصار لقب الرجل "الكناني" أي المصري، شأنه شأن البخاري أي الذي أتي من بخارى، والدمشقي أي الذي أتي من دمشق.. وغيرهم، فعاش بني مناف بأرض باكا وخططوا عمرانها كتخطيط مدينة منف.

وولد كنانة قيس "ولقبوه بالنضر"، وولد النضر مالك، وولد مالك كنان، وولد كنان فهر، وإلى فهر يرجع نسب قريش، وأمه كانت من نسل جرهم المصريين.

وعلى قلة نسل بني مناف، فقد اشتد عودهم، وقويت شوكتهم، وصاروا أقوى أهل الجزيرة وأغناهم، إلى الحد الذي صار نسلهم قبيلة لا يستهان بها.

فكان نسب فهر قبيلة "قريش" وهي كلمة مصرية قديمة بمعنى "قبيلة الإيمان"، فصار لقب فهر "قريش"، فنسبت إليه القبيلة، وتسمى بها أولاده من بعده.

وطال الزمن وتعدد النسل، وزاد اختلاط بني مناف بغيرهم، فأصابت عقيدتهم آفة التحريف، وكثرت البدع وظهر الشرك، لكنهم على ذلك يعرفون أن للكون خالقًا واحدًا، وأن بالسماء إله واحد، هو الرزّاق المحيي المميت

صاحب التصرف في جميع خلقه، وكل من على الأرض من آلهة إنما يعبدونها كوسيط لتقربهم من الله زلفى.

وولد قريش _ الذي هو فهر _ غالب، وولد غالب لؤي، وولد لؤي كعب، وولد كعب مرة وأمه من نسل فهر "قريش"، وولد مرة كلاب وأمه من نسل كنانة، وولد كلاب قصي "واسمه زيد".

فكان من بني مناف قصي، وهو الجد الرابع للرسول عليه الصلاة والسلام، وكان يطلق على قصي كبير بني مناف، وأنجب قصي، وكان من ولده أربعة أولاد أسماهم جميعًا بالأسماء المصرية القديمة لكن باللسان العربي وهم: عبد مناف "نفر حوتب"، وعبد شمس "رع حوتب"، وعبد العزي "عزت حوتب"، وعبد الدار "بر حوتب".

وولد عبد مناف "أي تابع بني مناف، واسمه المغيرة" هاشم والمطلب..

وولد هاشم "واسمه عمرو" عبد المطلب "أي تابع أو خادم المطلب"، لأنه كان تابعًا لعمه المطلب فأسموه عبد المطلب "أي تابعه وخادمه"، وكان اسمه شيبة الحمد.

وولد شيبة "عبد المطلب" عبد الله..

وتزوج عبد الله من آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب أخو قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي، وكانت آمنة بنت وهب أفضل نساء قريش نسبًا وبنت سيد بني زهرة نسبًا وشرفًا.

وأنجبت آمنة لعبد الله ولدًا هو خير ولد آدم..

أنجبت خاتم الأنبياء والمرسلين "محمد"..

محمد بن عبد الله.. بن عبد المطلب "واسمه شيبة الحمد".. بن هاشم "واسمه عمرو".. بن عبد مناف "واسمه المغيرة".. بن قصي "واسمه زيد".. بن كلاب.. بن مرة.. بن كعب.. بن لؤي.. بن غالب.. بن فهر "قريش".. بن النضر "واسمه قيس".. بن كنانة.. بن خزيمة.. بن مدركة "واسمه عامر".. بن إلياس.. بن مضر.. بن نزار.. بن معد.. بن عدنان..

وإلى عدنان يختلف النسّابون فيما فوقه، إلى أن جميعهم يقرون بأن عدنان من ولد إسماعيل، الذين أنجبهم من زوجته المصرية.

وإسماعيل بن إبراهيم الخليل من زوجته هاجر المصرية أيضًا..

إسماعيل بن هاجر المصرية وأبوه خليل الرحمن إبراهيم.. بن تارح.. بن ناحور.. بن ساروغ.. بن أرغو.. بن فانغ.. بن عابر.. بن شالخ.. بن أرفخشد.. بن سام.. بن نوح.. بن لامك.. بن متوشلخ.. بن أخنوخ "إدريس المصري".. بن يارد.. بن مهلائيل.. بن قيان.. بن أنوش.. بن شيث.. بن آدم أبو البشر.

* * *

"إن الله اصطفى "كنانة" من ولد "إسماعيل"، واصطفى "قريشًا" من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم". حديث رقم 2276 – صحيح مسلم.

"نحن بنو النضر بن "كنانة" لا نقفو أُمنا ولا ننتفي من أبينا". حديث رقم 2132 – صحيح ابن ماجة.

-26-

رن جرس الباب، ففتحت شيماء لتجد عم محمد البواب وبجانبه امرأة شابة تبدو من ملامحها وهيأتها وملابسها أنها أجنبية، لكن ما أثار دهشتها وحيرتها هو التعبير على وجه تلك الأجنبية، فقد بدا عليها حزن شديد وقلق في نهاية، وعيناها احمرّتا من أثر بكاء مرير، فنظرت شيماء إلى عم محمد البواب مستفهمة، فقال:

- لم أفهم من كلامها شيئًا، سوى أنها وسط كلامها ذكرت اسم الباشمهندس يوسف.

فسألتها شيماء بالإنجليزية عن هويتها وعما تريده، فأجابت الأجنبية بكلمتين: "أنا كرستينا.. أم آدم"، بعصبية رحبت بها شيماء، وبقلق دعتها للدخول، فدخلت، في حين ابتسمت شيماء إلى عم محمد ابتسامة خادعة واستغلت افتراضًا بأن الأجنبية يقينًا لا تعرف اللغة العربية:

- كن قريبًا يا عم محمد، فربما أنادي عليك، فأنا بالشقة بمفردي.

فهم عم محمد قصدها وأومأ برأسه إيجابًا وهو يقول بصوت خشن:

- لا تقلقي يا هانم، سأكون هنا خلف الباب.

فاطمأنت شيماء لذلك، فهي لا تعرف ماذا خلف هذه الأجنبية.

❋ ❋ ❋

-27-

صرخ جرس الباب وجذب صريخه انتباه الموجودين بالفيلا، أسرعت خادمة فلبينية لتفتح، مضت ثوان قبل أن تعلن بلكنة رديئة "سيدتي شيماء"، حاولت الخادمة أن تلقي التحية على شيماء، فقابل صوتها أذنًا صماء، جرجرت شيماء نفسها حتى دخلت، أمام نظر أمها _ الجالسة بأريحية وهي تضع قدمًا على قدم فتجسدت فخذًا ممتلئة ملفوفة _ نزلت شيماء درجتين في اتجاه أنتريه فاره يتوسط الصالة قبل أن تتهاوى بمرارة على أقرب كرسي وسط بهو الاستقبال المترامي الأطراف، كالمحتضرة أرخت شيماء ذراعيها بجانبها، وتركت رأسها تميل إلى الخلف، شاخصة بعينيها تنظر في لا شيء، بجزع تركت أمها طبق التسالي والمكسرات على المنضدة، وحوّلت إليها بحسرة نظرها من مراقبة قبلة حارة وأحضان ملتهبة تتقيؤها شاشة تلفاز بحجم شاشة سينما، فأصاب مزاجها الرائق كدر حين نظرت لحالة ابنتها، كانت شيماء كمن دهستها سيارة رصف طريق، وتناوب عليها نهش كلاب السكك، هندام مهمل، عين محمرة، وأنف منتفخ، ووجه أصابه عبوس الكون بأكمله، ونظرات زائغة خلف دموع أبية مستعصية ترفض أن تغادر عيونها كبرياءً، وصدر لا يتسع حتي لأنفاسها، فتحت الأم المصدومة فمها للتكلم لكن الكلام ازدحم بحلقها فانحشر ولم يخرج، واكتفت بأن تشاهد بعين حيرانة تلك الفتاة الهاربة من مسرحية تراجيدية. بين فزع وصدمة مضت عشر سنوات ثقيلات قبل أن تتنفس شلتة الكرسي وتتحرك المؤخرة العريضة وتترك الأم مكانها الدافئ وتتحرك باثنين وتسعين كيلو من

المهلبية الرجراجة نحو شيماء، غاصت رأس شيماء بين ثديين أكبر من منطاطين يشعّان رائحة مثيرة تُميز أنثى النمر في موسم الشبق أو التزاوج.. أيًا كان.. فالمهم أنه موسم الرغبة في ذكر عنتيل.

وسط المنطاطين شعرت شيماء بضيق الدنيا، مضى ما يقرب من ست سنوات لا ينطفئ حزنها إلا بين أحضان يوسف، لكن لا بأس بالمنطاطين الآن.

استجدت شيماء دموع الرحمة من عينيها تنفّث بها عن حرارة فحم بفرن قطار متهالك فعاندتها الدموع، شعرت بفوران حمم بركانية لبركان ثائر بين ضلوعها أصاب لظاه رأسها بالغليان.

يقولون إن الحلم كالحقيقة، سوى أن الفرق بين الحلم والحقيقة هو الاستيقاظ، لكن أوقاتًا يكون فيها الكابوس أفضل بكثير من واقع نغوص فيه إلى أعماق الجحيم.. وبلا استيقاظ.

تنفست شيماء الصعداء حين هبط المنطاطين لبر الأمان وغادرتهما شيماء لتشعر بحرية في سحب جرعة من الهواء.

- ماذا بك يا حبيبة ماما؟

هل هواء المكيف بارد بسماجة أم أن تلك الرعشة الباردة نابعة من داخلها؟

لم تتمالك الأم نفسها حين رأت البواب داخلًا يئط من حمل شنطة كبيرة، شنطة ابتلعت ملابس شيماء، ذاك مشهد لم تتوقعه أمها ولا حتى في أحلامها.

- ماذا حدث يا شيماء؟

صامتة كتمثال بوذا..

هل أصبحت الفيلا الواسعة ضيقة أم أن صدرها تقلص حتى اختنق قلبها بداخله؟

- ماذا بك يا حبيبتي؟ أقلقتِني.

هل غادر الأوكسجين الهواء أم أن تلك الزرقة تعلن عن احتضار روحها؟

- ماذا حدث يا شيماء؟ أجيبيني من فضلك.

أمام لهفة أمها، وصوتها المرعوب، ونبرتها القلقة، نظرت شيماء بتماسك يشبه عزة نفس عمر المختار متجاهلًا الأصفاد ونظرات عدو شامت حين أجابتها بكلمة واحدة.

انعجن وجه أمها بعد لكمة قاضية من محمد علي كلاي حين يغضب، تعلم أمها أن السن يركب قطارًا سريعًا لكن ليس إلى الحد الذي يصيب أذنها بالهلاوس، شعرت بأن قلبها يغوص في معدتها، وأن ما سمعته من شيماء لا يعدو سوى أنه علامة من علامات يوم القيامة.

- تتطلقين مِن مَن؟ مِن يوسف؟؟؟

شعرت شيماء بمعدتها تعتصر وغثيان يراوضها، فهرولت تريد غرفتها، وهي تدب بقدميها رخام درج السلم، وتركت الجميع متسع العين فاغر الفم.

-28-

تركت شيماء ملابسها على سريرها الذي يتوسط الغرفة، تحاشت النظر لانعكاس صورتها في مرآة الدولاب، سحبت قدميها على الأرضي ودخلت حمام غرفتها عارية، ملأت حوض الاستحمام بماء بارد لتغسل فيه آثار تلك المقابلة مع كرستينا وملأته بمكعبات ثلج طفت على سطح الماء حتى غطته في محاولة يائسة لإجبار أعصابها المشدودة حد الألم على السكون أو الموت.

عيناها مغمضتان، أنفاسها مكتومة، تصرخ رئتاها طلبًا للهواء، أصاب قلبها الجنون، واستنفرت الدماء بعروقها طلبًا للأوكسجين، أصاب الخدر أطرافها، بدأت الزرقة تتسلل جسدها المتألم أسفل ماء تركت نفسها تغرق تحت سطحه عمدًا..

الشعور بالألم ما هو إلا تأكيد بأننا لازلنا على قيد الحياة.

الانتحار يهوي بك في جهنم!!!!.. فما الضير إذن من الانتحار؟

فأنا في الدنيا الآن أقيم إقامة كاملة تشمل جميع الخدمات في جهنم.. منذ ساعة فقط اشتريت قصرًا فارهًا داخل مجمع قصور جهنم..

لن تتخيل من هو جاري الجديد..

أبو لهب..

"Fuck You Creistina" .. فلتذهبي إلى الجحيم يا كرستينا.

تلك الجميلة التي صحبت برودها الإنجليزي وأتت تدق باب بيتها لتخبرها أن رسالة أتتها من يوسف يُعلمها أن آدم تعرض لحادث سير وهو الآن بالمستشفى.

إذن فليس طارق هو صاحب الحادثة!! يوسف كان يكذب.. "ابتلعت شيماء هذه".

استفسرت شيماء:

- إذا كان آدم بالمستشفى، فلماذا يخبرك يوسف بهذا؟ الأولى أن يخبرك طارق، أليس هو عم الولد؟.. "ابتلعت هذه أيضًا".

- وكيف عرفت عنوان شقتي؟.. أعني شقة يوسف؟

كرستينا:

- أعرفه منذ سنة، استدللت عليه بمعرفة السفارة، حين أقبلت على الزواج ورفض زوجي وجود الطفل فآثرت أن أرسله إلى أبيه لحين أرتب الأمور وأسترجعه مرة أخرى.

السفارة؟؟ ترسلينه إلى أبيه؟؟ ألا يعمل أبوه معك بإنجلترا؟؟.. يوسف كان يكذب ثانيةً؟؟.

الدوامة أصبحت أعتى، وتكاثرت علامات الاستفهام تدور حول رأس شيماء المشتت.

- ما علاقة يوسف بكل هذا الهراء؟؟

منذ سبع سنوات زارت كرستينا الغردقة في نزهة سياحية وقابلت يوسف حين كان يعمل هناك أثناء دراسته.. "رغم مرارتها وعفانتها عصرت شيماء على نفسها جوال ليمون وابتلعتها أيضًا".

غارت كرستينا لبلدها لتكتشف أن نتيجة سهرة سكرت فيها حتى الثمالة، ولأنها لم تستطع أن تبقي رجليها مضمومتين فقد حملت بآدم.. "إلى

هنا امتلأ جوف شيماء بقيء تلك العاهرة ولم تستطع أن تبتلع أي شيء بعد".

- وما علاقة كل هذه الحوارات بيوسف؟.. "سألتها شيماء بانفعال".

ببرودها الإنجليزي ألقت كرستينا كلماتها كمن يشرح لطفل صغير حاصل جمع 2 + 2= 4.

وفي الحقيقة الأمر بات واضحًا لا يحتاج لشرح، لكننا دائمًا هكذا، إذا استشعرنًا مصيبة خلف الحقيقة الواضحة.. فإننا نتغابى ونتعامى.

شريك تلك النزوة، وصاحب تلك النطفة..... هو يوسف.

- كيف ذلك يا بنت الكلب؟..

يوسف غير قادر على الإنجاب أصلا..

لحظة واحدة..

يوسف غير قادر على الإنجاب؟؟؟؟

* * *

قبل خمس سنوات..

بعد أول أربعة شهور من زواج يوسف وشيماء..

مركز طبي لعلاج حالات العقم وتأخر الإنجاب..

انفتح المصعد بالدور السابع، بخطوات عصبية مرتجفة غادر الزوجان ناحية اليمين، باب العيادة كمدخل كهف قد يحوي كنزًا وقد يحوي موتًا، على عتبة الباب تبادلا نظرتين مع شبح ابتسامة يرتسم على شفتيها زادت القلق بنفسيهما أكثر من طمأنتها، جو الشتاء بارد لكن الهواء بداخل العيادة حار خانق من أنفاس الجالسين علي الصفين.

كل هؤلاء يطلبون علاج العقم وتأخر الإنجاب! من إذن يتولى تعبئة الأرحام بكل هذه الأجنة؟؟؟

بآخر صالة الاستقبال يوجد مكتب كبير يربض فوقه كمبيوتر تنقر عليه أصابع رقيقة بأظافر ملونة بثلاثة ألوان، وكوب نسكافيه، وبعض الملفات والمظروفات، تجلس إليه عروس المولد موظفة الاستقبال.

توجها مباشرةً إلى موظفة الاستقبال، استقبلتهما بابتسامة رقيقة بفم مصاص دماء اصطبغ باثنين كيلوجرام من أحمر دم الغزال فوقه أنف عريض وعين تشع غنجًا قبيحًا.

- لو سمحت يا مدام! لدينا حجز باسم يوسف عبد الرحمن.

- آنسة من فضلك

"آنسة؟؟؟..... أشك".

بدون أن تجلس، انحنت "الآنسة" على الكمبيوتر فطقطقت ملابسها الضيقة استغاثةً من فتق يهددها، راجعت جدول المواعيد وأكدت الموعد.

- انتظرا هنا دقائق، ستدخلان بعد الحالة التي بالداخل.

أمعاء زاد نشاطها، ومعدة انقبضت على نفسها كعبوة المياه الغازية، وأطراف أصابتها البرودة، لبثا دقائق في انتظار الدخول ليطّلع الدكتور على نتيجة التحاليل والفحوصات ويخبرهما بالنتيجة.

"رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين"

بدعاء وابتهال لله مرت سنوات العزيز قبل أن تطلب منهما أن يدخلا، نقر يوسف الباب قبل أن يدخلا، أزكمت أنفيهما رائحة مطهر ممزوج بكحول فواح، الطبيب جثة تتنفس برأس يغزوه البياض وأنف مدبب تستقر عليه

نظّارة، يتوسط حلقة الستين من عمره، وقف الدكتور خلف مكتب أصابته فوضى الأوراق ببالطو أبيض يطل منه كرش متهدل استقبلهما، سلم عليهما بيد ناعمة فهي لا تتعب في غير فحص الأعضاء التناسلية، وبابتسامة فم تشنج من كثرة ما ابتسم كذبًا لمرضاه، جلسا علي كرسيين متقابلين على الجانب الآخر من المكتب، تعلق نظر يوسف بآية قرآنية علي الحائط خلف الدكتور "المال والبنون زينة الحياة الدنيا"، وتعلقت آمال شيماء بصورة على الحائط خلف يوسف لبطن انتفخ بجنين كامل النمو.

ترتعش عينا الدكتور وهو يقرأ نتائج الفحوصات، ترتعش شفتا يوسف بابتهال ودعاء، ترتعش كل أطراف شيماء، قدماها.. كفاها.. أصابعها.. نبض قلبها، بقلق وأمل، وخوف ورجاء.

تلك لحظة من لحظات قليلة نستشعر فيها رغبة ملحة في القرب من الله..

إيمان مؤقت.. لكنه طاغ، يشبه إيمان رجل التف حول رقبته حبل المشنقة..

- جميل.

قالها الدكتور وهو يضع التقارير على مكتبه، ويطالعهما بتلك الابتسامة الكاذبة.

يوسف:

- خير يا دكتور؟

- خير بإذن الله، الموضوع سيحتاج بعض الوقت.

غاصت شيماء في جوف بئر مظلم، تسمع حولها فحيح أفاعٍ، بكلماته يلقي الدكتور حبل نجاة، لكنه حبل متهالك أكلته الفئران.

شيماء:

- هل هناك مشكلة؟

- لا مشكلة ولا حاجة، كل ما في الأمر أن الإنجاب سيتأخر قليلًا، لكن بالعلاج ستتحسن النتائج بإذن الله.

شيماء:

- أعني.. هل هناك أمل يا دكتور؟

- قولي يا رب.

"هل سمعتني أقول يا "حسين"؟ أم أسجد بجبهتي تحت ذيل بقرة؟.. "قولي يا رب"!!.. ليس هذا ما أريد سماعه".

نظرت شيماء إلى يوسف بقلق صارخ، فابتسم لها مطمئنًا وتناول كفها المثلج وربت عليه في محاولة فاشلة لتهدئتها.

أنهى الدكتور كتابة عريضة روتينية بأصناف أدوية تكفي لجعل ذكر الشمبانزي حاملًا بجنين أحلى من القمر.

- سننتظم على هذا الدواء فترة، والآن اسمحي لي بأن أقوم بفحصك بالسونار.

وأشار لها ناحية السرير العقيم الذي أحسّته كخشبة غسل الميت خلف ستار أبيض رأته كالكفن، أراد يوسف أن يتبعها، لكن غمزة خائنة من عين الطبيب جعلته يتحجر في مكانه كصنم أوشك معول الدكتور على تفتيته.

في اللحظة التي انشغلت فيها شيماء خلف الستار تهيئ نفسها للفحص سمعت همهمة وهينمة، انتظرت بنفس أكلها القلق حتى رأت الطبيب.

ليتها ما رأته.. ليتها ما سألته.

بوجه يحمل أسفًا روتينيًا، تردد الدكتور قبل أن يلقي من طائرته قنبلة هيروشيما:

- للأسف.. السيد يوسف غير قادر على الإنجاب.

انفجرت القنبلة..

اهتزت الأرض تحتها وتصدّعت قشرتها، دوى صوت الانفجار فصم أذنيها، انتشر مداه بين حدود قلبها، زفرت زفيرًا يحمل لهيبه، امتصّ صدرها الرقيق غباره الذري، وغسلت دموع عينيها آثار رماده، وأطفأ ريقها ناره المستعرة بجوفها، ومرت خمسون سنة قبل أن تظهر الحياة علي وجهها مرةً أخرى.

رفعت إلى الدكتور رأسًا يدور أسرع من الكرة الأرضية، ونظرت إليه بعينين تغوصان داخل ثقبين أسودين، وحركت شفتين بثقل الجبال، وانتزعت الكلمات من حلقها كما ينتزع السهم من قلب الغزالة الرقيقة، وقالت بلسان أصابه شلل الحسرة:

- هل أخبرت يوسف؟

أومأ برأسه يمنة ويسرة أن لا.

كفكفت دموعها، وقالت بصوت خفيض حريص:

- أخبره بأنني أنا التي لا تنجب.

وأردفت حين اتسعت عينا الدكتور تعجبًا واستنكارًا:

- أرجوك.

* * *

اليوم..

قبل ساعة من الآن..

نفس العيادة..ونفس الدكتور..لكنها ليست نفس تلك الشيماء.

انفتح باب غرفة الدكتور عنوة ودلفت منه شيماء بعصبية تتبعها موظفة الاستقبال وهي تثرثر بكلمات لم تمس حتى طبلة أذن شيماء.

توقفت شيماء بغتة والتفتت إلى تلك المثيرة بنظرة أن أغربي عن وجهي قبل أن أشرب من دمك.

أشار لها الدكتور المفزوع بيده أن اتركيها.. سأتولى أمرها

- خير يا مدام.

تبعثرت التحاليل والفحوصات على مكتبه حين ألقت بها شيماء باستهتار وغضب.

نظر إليها بدهشة وهو يشعر بأن ثمة قبر على وشك أن يُنبش..

خلع الدكتور نظّارته، وفرك عينيه قبل أن يلتصق عموده الفقري بالكرسي، وأشار إليها براحة يده أن اجلسي فتجاهلت إشارته.

- منذ خمس سنوات أخبرتنا أننا لن نرزق بطفل، هل تذكر السبب؟

سحب الدكتور نفسًا طويلًا حبسه بصدره هنيهةً قبل أن يخرج الزفير مصحوبًا بكلمات متخاذلة:

- نعم أذكر، لأنك لا تنجبين.

- هذا ما اتفقنا عليه سرًا يا دكتور، لكن.. هل تذكر الحقيقة؟

صمت قليلًا قبل أن تنام راحة يده المفرودة على سطح المكتب يستمد من صلابة خشبه طاقة تساعده للتصالب أمامها:

- اجلسي أرجوك.

- لن أجلسسسس، ليس للجلوس أتيت.

- ماذا تريدين إذن؟

بنفس ملامح الغضب على وجهها سالت دمعتان غزيرتان، انسابت على خديها فانسابت دفاعات الدكتور أمامها.

- لماذا تفتشين في الماضي؟ دعي الأسرار تنام مستقرة.

- أبوس يدك أخبرني كيف ليوسف أن ينجب؟

ذُهل الطبيب وأخذته دهشة:

- هل أنت حامل؟

- المصيبة أنها ليست أنا؟

- هل تزوج بأخرى؟

- المصيبة الأكبر أنه لم يتزوج غيري؟

- ما الأمر إذن؟

هنا انهارت، شعرت بالأرض تميد تحت قدميها، فخارت بوهن على كرسي، واستحال غضبها إلى ضعف، إلى مرارة، إلى تيه ستفيق منه بعد أربعين سنة.

- لا أدري ما الأمر، لا أعرف ما الحقيقة.

ثم بصوت خنقته الدموع:

- كل ما أعرفه أن يوسف غير قادر على الإنجاب، وأننا اتفقنا سرًا أن نعلن أني أنا التي لا تنجب، كيف يكون له ولد إذن؟

كانت كلماتها تعويذة سفلية أيقظت المارد من قمقمه.

- تذكرين تلك الهمهمة التي سألتيني عنها يومها؟

اكتفت بالنظر إليه، ففهم أنها تذكر وتنتظر منه أن يكمل.

- تلك الهمهمة كانت سرًا أبثه أذن يوسف..

سرًا ظل رابضًا في قبره حتى نبشتيه أنتِ اليوم..

* * *

قبل خمس سنوات..

بعد أول أربعة شهور من زواج يوسف وشيماء..

نفس العيادة.. ونفس الدكتور..

أراد يوسف أن يتبعها، لكن غمزة خائنة من عين الطبيب جعلته يتحجر في مكانه كصنم أوشك معول الدكتور على تفتيته.

توارت شيماء خلف الستار حين مال الدكتور بجسده ناحية يوسف، فمال يوسف ناحيته:

- للأسف يا سيد يوسف لدي خبر لن يسرك.

-....

- المدام غير قادرة على الإنجاب.

أشعل في جسده النار حتى أوشك على الانصهار.

- لا أمل ألبتة لا قبل العلاج.. ولا بعده، أنا آسف.

أسال على رأسه نهرًا من الماء البارد حد الصقيع، تشقق جسده المنصهر قبل أن يتناثر منفجرًا وتتطاير شظاياه تسبح في السديم.

- دكتور! أسدِ لي جميلًا لن أنساه لك.

-.....

- أخبرها بأنني أنا العقيم.

-!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!.

-29-

من الأحد إلى السبت مرت سبع سنوات عجاف، فشلت معها كل محاولات أمها وأخوها في تهدئتها، حتى أبوها المحامي المشهور فشل في إقناعها وهو الذي لو ترافع لهتلر داخل الكنيست الإسرائيلي لجعل أكف اليهود تتقطع من التصفيق، ولو ترافع للقذافي ضد الشعب الليبي لصرف له تعويضًا من جيوب الليبيين وهم يبكون على شديد ظلمهم لذاك الحاكم العادل.

فشل في أن يقنعها بأن مستقبلًا لا يهدم بسبب نزوة ماضٍ سحيق حدثت حتى قبل أن يلقاها، وأن الذنب ليس ذنبه وأنها لم تتعد نزوة شاب طائش وفتاة أجنبية لم تعان أي حرج في سهرة خاصة على سريرها.

لكن المنطق بعقلها قد تعطل، كل ذنب من الممكن أن يغتفر، كل خطيئة مع الوقت قد تتلاشى، إلا تلك التي تجسدت فصارت كيانًا يمشي بقدميه على الأرض..

كيف تنسى ذنبًا صارت له عينان زرقاوان، وأسنان دقيقة ناصعة، وكف رقيق ناعم؟

كانت ستحكم لصالح حب عمرها إذا ما وزن مع نزوة عابرة..

لولا أن الحب بينهما لم ينجب لهما طفلًا.. لكن النزوة فعلت..

ضاقت ذرعًا بأعذارهم، اعتزلت مجلسهم هربًا، استأنست بوحدتها، بكآبتها، بالمرارة في حلقها، بالألم بين ضلوعها، بوخزة السكين في قلبها.

لن يشعر أحد بعذابك ما داموا على البر الآمن وأنت تغوص في الجحيم وحيدًا..

خرجت أفرينا الفلبينية من غرفة شيماء التي صارت تلازمها، وهي تحمل صينية مرصوص فوقها صحائف طعام وكوبين ماء وعصير، أغلقت أفرينا باب الغرفة وتوجهت نحو السلم، في حين خرجت عبير هانم والدة شيماء من غرفتها المطلة على نفس الرواق، نظرت عبير بأسى لصينية الطعام العذراء، لم تمتد لها يد ولم يهتك عرض طعامها فم، وقفت أمامها أفيرينا بوجه حزين بلا عيون، هكذا بدت حين ضيّقت عينيها الضيقة أصلًا:

- "مس كل هاجه من إيمباره الأصر"

الترجمة: مش كَل حاجة من إمبارح العصر..

مضى أسبوع وهي تلازم غرفتها، اعتزلت مجلسهم حتى في أوقات الطعام والسمر، حزينة منطوية، لا تكلم أحدًا، تهمل رنات هاتفها اللحوحة، أغلقت كل الأبواب أمام محاولات يوسف ليراها أو ليتحدث إليها، حتى مع محاولات أمها لتساعده على ذلك، أسبوع تعيش فيه شيماء على فتات الطعام، لا يدور في معدتها الخاوية غير شربات ماء تستنفدها الدموع، وعصارات مريرة لمعدة تستغيث، شفتاها صارتا أرضًا بورًا تشققت ولا تروى إلا من سيل دموع من عين فقدت بريقها، صدرها ضاق ذرعًا بالحياة، وما تبقى له من مساحة للتنفس قتلتها أرجلها المضمومة عليه، تحت ضغط ذراعيها الملتفين حول ركبتيها كأنكوندا "يونيكس مورينوس" الاستوائية.

سقط من عمرها أسبوعًا استحالت فيه الشمس إلى غروب دائم، عقارب الساعة شعرت بالإهانة من عدم الاكتراث.

فلتذهب عقارب الساعة إلى الجحيم، إذا كانت تشعر بالغضب فلتأتي وتلدغني.

طرقت عبير الباب ودخلت بلطف مصحوب بابتسامتها، ابتسمت لها شيماء بفم خامل، وأهداب منكسرة، وهالة سوداء حول عينيها، جلست بجوارها على السرير قبل أن تسألها السؤال الذي لا إجابة له:

- كيف حالك؟

لملمت شيماء خصلات شعرها خلف أذنيها وهي تهز رأسها برفق:

- الحمد لله. "صوتها واهن ضعيف، تغيرت نبراته من كثرة البكاء".

مدت عبير يدها بهاتف شيماء بعدما أنهى شحنه، فقد أهملته شيماء شأنه شأن كل شيء في الحياة، فبدون علمها وضعته أمها على الشاحن حتى أفاق من غيبوبة دامت ليومين، استقبلت منذ تركت شقتها مليون اتصال من يوسف ومليونًا إلا ربع من غادة.

- شحنت لكِ الموبايل.

لم تكترث شيماء بتناوله، فوضعته عبير علي كومودينو عن شمالها.

- اتصلت غادة بك كثيرًا.

-.....

- ألا زلت لا تريدين مقابلتها؟

- ولا مقابلة أي أحد؟

- ولا حتى..

- ماما. "نهرتها وهي تنظر إليها بنظرة ملتهبة".

احتارت أمها في حل، لا تعرف ماذا تفعل بعد.

من يقول إن بيتًا يهدم بسبب نزوة عابرة حدثت في الماضي الغابر؟.. النساء بالتأكيد..

- يا حبيبتي أنا قلقة عليك، إلى متى ستمكثين هكذا؟

- حتى يطلقني منه أبي.. إن كان يكترث لي.

- عيني في عينك.. أنت تحبينه كما هو يحبك بل وأكثر، كلامك من وراء قلبك.

-....

- والله العظيم لو أعلم بأن طلاقك من يوسف سيريحك لطلقتك منه قبل أن تدور الشمس، لكن..

- من غير لكن، ماما لو سمحت.

- خلاص يا بنتي.

ضمّتها بحنو إلى صدرها، قبّلت مفرق شعرها:

- سأتركك لترتاحي.

توجهت عبير نحو الباب، فتحته والتفتت ناحية شيماء:

- شيماء! طاوعي قلبك.

ابتسمت بمرارة لتجاملها، غادرت أمها في حين اتكأت شيماء على وسادة خلف ظهرها، نغمة رسالة جعلتها تلتف إلى الهاتف عن شمالها لتلاحظ لأول مرة تلك الورقة المستقرة أسفله، لا تخصها فيما تذكر، تناولتها وفضتها، فجأة اعتدلت في جلستها، تعرف خطه من وسط مليون خط.. يوسف. تراقص قلبها كفتاة مراهقة تقع عيناها على حبيبها صدفة في البلكونة، لازال قلبها ينبض ولازالت رئتاها تتنفس.

* * *

فاكرة زمان.. لما قابلتك.. قلتي عمرك ما هتفارقيني
فاكرة زمان.. يوم ما عشقتك.. خدتي حياتي قلبي وسنيني
إيه اتغير.. أنا متحير.. ليه سبتيني
غلطت في إيه؟
خبيت عليكي.. من حبي ليكي.. خفت أجرحك
نسيتي ليه؟
أنا عشت ليكي.. وبين إيديكي.. بفرحك
بحبك موت
وحشني صوتك.. وحشني حضنك
هموت وأشوفك.. هموت وأضمك
هتسيبيني أموت؟

* * *

بين الفرح والحزن ضمت خطابه إلى صدرها، تشعر بروحه تفوح من كلماته فتحتضنها أكثر، بكت حتى انتحبت، يصرخ قلبها "بحباااااااك"، لتسمع هي صدى نبرته الحزينة "هتسيبيني أموت؟".

❋ ❋ ❋

-30-

هبّ يونس واقفًا نافر العروق، مغضن الحواجب، ملتهب العين، وضع كلتا يديه على طاولة عليها لاب توب وبروجيكتور، والتف حول الطاولة ثمانية ضباط من أصدقائه وأصدقاء صديقهم الشهيد خالد تعاهدوا فيما بينهم على الثأر لدماء صديقهم المسالة غدرًا، بعد أن تأكد يونس بأن الجميع قد تركوا هواتفهم ببيوتهم تحسبًا لأي تتبع، ودليل على أنهم لم يغادروا منازلهم؛ لأن يونس بالطبع سيكون أحد المشتبه بهم في هذه العملية، فجعل يونس يشرح لهم تفاصيل الهجوم، ويُرسّي لهم خطته وهو يسمع منهم ويسمعوا منه.

- نجاح العملية يتلخص في الاقتحام، الاقتحام لابد أن يكون في 40 ثانية، والدخول والخروج في دقيقتين، دقيقتيين.

ثم أشار إلى كريم:

- الصور.

خفت نور الغرفة، وتوهّجت الحائط بانعكاس صور.

- هذه كاميرات المراقبة، وهنا وهنا وهنا وهنا أربعة بصّاصين يؤمّنون من بعيد الجهات الأربعة لمكان الجماعة، ويرصدون أي حركة غريبة ويرسلون إشارة فورية إلى باقي الجماعة للاستعداد.

سننقسم إلى فريقين، الفريق "أ": أحمد وعبد الله وحسام ويحيي..

والفريق "ب" سأكون أنا وعمر وهاني ومحمد..

وكريم سيكون في سيارة مجهزة لتقديم الدعم الفني والاتصال.

بالنسبة للبصّاصين سيتولاهم الفريق "أ".

سمع صوتهم:

- تمام.

- لا تنسوا، في هدوء وصمت.

- تمام.

- وبالنسبة للكاميرات فسيتولاها كريم بقطع الكهرباء عن المنطقة، وللحظ الجيد هم لا يملكون مصدرًا آخر للكهرباء كما أخبرنا صديقهم إسلام.

- تمام. "قالها كريم".

- أما الفريق "ب" فإننا فور تلقينا التمام من الفريق "أ" ومن كريم فسنبدأ الهجوم فورًا، ثم يتبعنا الفريق "أ" للتغطية وتأمين الخروج.

"صورة لشخص معمم، كث اللحية، عابس الوجه"

- هذا هو هدفنا، مدبر العملية الإرهابية التي استشهد فيها خالد، اقتلوه حتى لو كنت أنا بينكم وبينه، اقتلوه من خلال جسدي.

عرض كريم صورة أخيرة.

- هذه صورة من الأسلحة التي يستخدمونها، سنستخدم نفس السلاح، وسنخلّف وراءنا تلفيات عشوائية صبيانية نغطي بها على دخولنا وخروجنا، لا نريد لأحد أن يتبين أسلوب المحترفين المتدربين للإيهام بأنها عملية تصفية منهم فيهم.

ثم نظر يونس إلى عمر:

- هل أحضرت السلاح.

- حصل، السلاح والقنابل المسيّلة للدموع، ونظّارات الرؤية الليلية، والقمصان المضادة للرصاص.

- الليلة هي الأخيرة في الشهر الهجري، سنستتر بالظلام ونهجم قبل أذان الفجر بساعة، هل هناك أي أسئلة؟

سأله عمر:

- نعم، ماذا بخصوص إسلام وغادة؟

- بعد تنفيذ العملية سيكون إسلام أول المشتبه فيهم بتسريب معلومات الجماعة؛ وبالتالي سأدع أمره لجماعته، وأغلب الظن أنهم قاتلوه. أما عن غادة فلا تبالي؛ تلك فتاة عابثة، جمعت بينك وبين إسلام في ذات الوقت، وهي مسألة وقت قبل أن تتلاشى هذه الذكرى من مخيلتها، حينها ستبحث عن ذَكَر جديد. أسئلة أخرى؟

- لا.

- على بركة الله، نقرأ الفاتحة لخالد.

ورفع الجميع أكفهم إلى وجوههم يقرأون الفاتحة، إلا هاني..

رسم الصليب على صدره.

* * *

ركب الجميع بسيارة ميكروباص مجهزة، تركوها في مكان ناء عن مكان الخلية خوفًا من أن يرصدها أحد البصّاصين، ترجّلوا منها متدثرين بالسواد، الأقنعة تغطي وجوههم، وعلى الرءوس تستقر نظارات الرؤية الليلية، والصدريات المضادة للرصاص سوداء تغطي صدورهم، كل منهم مدجج برشاش آلي يمسكه بإحكام بيديه المدسوستين داخل القفازات

السوداء، ومسدس يستقر داخل جرابه المربوط إلى الفخذ الأيمن مع خزنتي رصاص إضافيتين، وسكين حاد الشفرة يخطف الحياة بلمح البصر يستقر على الفخذ الأيسر، وقنبلة يدوية بجراب خاص بالصدرية المضادة للرصاص.

تحرّك كريم ناحية مولد الكهرباء المغذي للمنطقة، افترق الفريقان كل في مكانه، تلقى يونس تأكيدًا بأن أفراد الفريق "أ" اتخذوا أماكنهم خلف البصّاصين، فأصدر أمرًا إلى كريم بقطع الكهرباء، فغرقت الدنيا في ظلام دامس، ارتدى الجميع نظارات الرؤية الليلية، وظلّوا متربصين.

أحد أعضاء الخلية بالداخل تناول جهاز لاسلكي، واتصل بالتناوب على البصّاصين الأربعة ليطمئن على الأجواء بالخارج بعد انقطاع الكهرباء قبل أن يُحذر الجميع ويطلب منهم اليقظة والحذر.

البصّاص بالجهة الشرقية:

- المكان خالٍ وكل شيء ساكن هادئ.

وما أن أنهى اتصاله حتى تقدم له أحمد، بخطوات هامسة سريعة باغته من الخلف، واعتصر رقبته بذراع صلبة مدربة، وما هي إلا لحظات قبل أن يسمع صوت ترقوته وقد انكسرت، فأسدل أحمد جثته الهامدة بحرص على الأرض، وأعطى تأكيدًا ليونس.

البصّاص بالجهة الغربية، كسرت رقبته بسرعة وخفة بين يدي عبد الله..

البصّاص بالجهة الشمالية، فارت دماؤه من جرح قطع رقبته من الوريد إلى الوريد بخنجر يحيى..

والبصّاص بالجهة الجنوبية، كان شديد الحذر والقلق ودائم الالتفات، باغته حسام من الخلف، لكن...

استدار البصّاص فجأة فشعر بحسام خلفه مباشرة..

تملّكه الفزع، وصدمته المفاجأة، وأعماه الظلام، فارتبك للحظات كانت كافية ليسحق حسام عنقه بثلاث لكمات مدروسة فارق معها الحياة.

تلقى يونس التأكيد من قائد الفريق "أ"، فأصدر إشارته لفريقه بالهجوم.

أكسبتهم الهجمة المباغتة والظلام الدامس ميزة الدخول السهل ولكن شيئًا لم يكن في صالحهم أكثر من نظارات الرؤية الليلية، فكانوا كالصقور يصطادون ديدانًا عمياء، فطفقوا يحصدونهم حصدًا، دقيقة وكان الطابق الأول خاليًا، ولم يبق أمامهم إلا الطابق الثاني حيث يربض الخنزير الأكبر للخلية، يتمتم بفزع:

- ماذا يحدث؟

وهو يصرخ كالمجنون ينادي على أفراد جماعته، لكنه لم يتلق جوابًا غير صوت الرصاص مخلوطًا بصريخ رجاله وهم يخرون صرعا.

- إليّ يا يونس!

أصاب يونس القلق حين سمع استدعاء هاني، خاف من مكروه قد أصابه.

وما أن تحرك يونس ناحية هاني حتي سمع عويل كعويل النساء:

- لا.. لا تقتلني، أنا أستسلم.

كان ذلك عويل الرأس المدبر للعملية الإرهابية.

هاني هادرًا:

- استدر يا بن الكلب.

- لا.. لا، لا تقتلني أنا أستسلم، ليس معي سلاح، ليس معي سلاح.

قالها وهو يستدير، فتأكد هاني أنه أعزل، فأمره بالرقود على ركبتيه، وذراعيه خلف رأسه في خزي وذل.

- لا تقتلني، أنا أستسلم، لا تقتلون.....

تلطخت الحائط من خلفه بدمائه ممزوجة بأجزاء من عجين دماغه، كانت تلك طلقة اخترقت جبهته ونفذت من خلف رأسه.

التفت هاني وراءه حيث مصدر الطلقة، فوجد يونس.

هاني:

- أمهلته حتى ينطق الشهادة.

يونس:

- حتى لو أمهلته سنة، أتظن بأنه يعرف ربنا؟ هل أنت بخير؟

أومأ له برأسه أن نعم.

-31-

باكرًا دخلت إيفرينا الخادمة إلى شيماء في غرفتها لتوقظها، فقد طلبت منها شيماء منذ أيام بأن توقظها كل يوم قبل أذان الفجر لتصلي، وما أن دخلت إيفرينا حتي دوت صرختها بأرجاء البيت.

وصلت صرخة إيفرينا إلى مسامع عبير هانم، فلم تكن قد نامت بعد، فهي معتادة على أن تسهر حتى ينقشع سواد الليل ببياض النهار، أسرعت إلى غرفة شيماء لتجد حال ابنتها كحال يونس حين لفظه الحوت، هرولت إلى ابنتها تحتضنها، لمست برودة جلدها، وشحوب وجهها، وسرعة نفسها، بما لا يبعث في النفس إلا القلق، فأسرعت إلى غرفتها تريد زوجها، أوقظته بقلق، ففزع من نومته:

- ما الأمر؟

- شيماء.

انتتر واقفًا:

- مالها؟

قالها وهو يرتدي روبًا تناوله من علّاقة ملابس جار سريره، وتوجه الاثنان إلى غرفة شيماء، لتجد الأم ابنتها وقد ازدادت سوءًا وإعياءً.

لم يجد الأب بوسعه إلا أن يستدعي طبيب العائلة، ذاك لأن شيماء تلهث بوهن وضعف ولا تجيب حتى بكلمة تخبرهما بما تشعر به أو بما تعانيه.

مضت دقائق طويلة إلى أن وصل الطبيب مسرعًا حين سمع استغاثة والدها في الهاتف.

شعرت أمها بتنميل يصيب قدميها فخارت على أحد كراسي الأنتريه بالصالة في الدور الأول، تقضم أظافرها من القلق، إلى أن سمعت خطوات الطبيب على السلم، فهبّت واقفة تنظر ما الأمر، فما طالعت غير السعادة والبشر يلوح في وجه الطبيب ووجه زوجها، كادت أن تفقد صبرها من الفضول وتسألهما ما الأمر؟

لهذه الابتسامة معنى؟..

طبيب يخرج من عند زوجة في حالة تشبه الإغماء، ثم يخرج هو وأبوها يضحكان، ماذا يكون إذن؟..

الطبيب:

- مبروك يا هانم، مدام شيماء.. حامل.

طارت حتى رقصت مع النجوم، وفرحت حتى شعرت برحيق الزهور يخالط أنفاسها، ستذبح لله، ستذهب للعمرة، ستترك زوجها يسهر بالخارج يومين في الأسبوع بدلًا من يوم، لن تخصم ثمن الجبن الرومي التي تأكلها أفرينا من راتبها الشهري.

- حامل؟

- نعم، الحمد لله، مبروك.

- حامل.. حاااااامل.. شيماء حاااااااامل.

- تفضل يا دكتور.. كان ذاك صوت زوجها يخاطب الدكتور، وهما يهبطان السلم.

فانتشلها صوت زوجها من شرودها، فسرعان ما نظرت إلى وجهيهما تستشف ما وراءه من أخبار، فوجدت الملامح جامدة، ولا شيء يمكن أن

يبشر أو يطمئن، سوى تلك المسحة الحزينة بعين زوجها وأدت كل أحلامها في خبر يفرح قلبها.

- طمئني يا دكتور!

- انهيار عصبي، ولا أخفي عليكم حالتها الصحية والنفسية سيئة، حقنتها بمهدئ سيجعلها تنام بأريحية، وأوصيت لها بمكملات غذائية مع الحفاظ على برنامج غذائي، والفترة القادمة لا تحتمل الحزن أو الضيق، أخرجوها بأي طريقة وروّحوا عنها.

- حاضر يا دكتور.

- تفضل يا دكتور. "قالها والد شيماء مشيرًا بأدب ناحية الباب".

❋ ❋ ❋

-32-

بأنامل ناعمة نقرت عبير على باب غرفة شيماء قبل أن تفتح الباب وتدخل، فلاحظت أن شيماء منشغلة فيما يبدو بشيء بين يديها، ترسم أو تكتب! لم تستطع عبير أن تتبين، وما أن شعرت شيماء بأمها تدنو منها إلا وقد أسرعت بترك القلم وثني الورقة التي كانت تكتب عليها عدة ثنايات قبل أن تودعها في درج مكتبها.

- كيف حالك اليوم حبيبتي؟

- الحمد لله، أحسن.

- الحمد لله، لديك زائر.

التفتت إليها شيماء، ثم هبّت واقفة وهي تنظر إلى أمها باهتمام لتسبر أغوارها، فقد توقعت شيماء من هو هذا الزائر، وقبل أن تسأل أمها للتأكد، سمعت طرقًا بباب غرفتها، ولم يلبث الطرق يتوقف إلا وقد استدارت أوكرة الباب لينفتح.

عشر سنوات مضت وشيماء تراقب بالتصوير البطيء أوكرة الباب وهي تلتف، والباب وهو يدفع من الخارج مفتوحًا قبل أن يظهر الزائر.

- كيف حالك يا شيماء؟

ابتسمت شيماء بخجل، وفتحت ذراعيها بتردد لتسمح بعناق طال انتظاره.

وما أن فعلت حتى هرولت هدير ناحيتها تعانقها:

- اشتقت لك يا شيماء؟ ما كل هذه الغيبة؟

- أنت أيضًا.. اشتقت لك كثيرًا، كيف حالك وحال جدتي؟

- بخير، تتمنى لو تراك.

- إن شاء الله.

- هناك من يريد زيارتك، وتوسطني لأطلب منك الإذن.

- هدير لو سمحت، أنا جَدُ تَعبة، ولا أريد أن أرى أحدًا.

طأطأت هدير برأسها:

- حسنًا، كما تريدين يا "شيمو"، خسارة، سيحزنون لذلك.

- يحزنون؟.. مَن تقصدين؟

- أصدقائي من الطلبة؟

- الطلبة؟

- أي نعم.. حين طال غيابك أرادوا أن يستأذنوا في زيارتك، من كنت تظنين؟

- هه؟ لا أحد.. لا أحد، أخبريهم بأنني أنتظرهم في أي وقت، مرحبًا بهم.

- هه؟ ما هذه الحيرة؟ هل ستقابلينهم؟

- بالطبع.

- حسنًا، سأخبرهم ونتفق على موعد مناسب، وسأهاتفك قبلها لأخبرك.

- اتفقنا.

- اتفقنا، الآن اسمحي لي أن أغادر، فجدتي بالبيت وحدها.

- أقرئيها مني السلام.

- سأفعل.

قامتا، تبادلا قبلتين وعناقًا طال للحظات، وتوجهت هدير ناحية الباب، في حين انتبهت شيماء كالملسوعة:

- هدير.

- نعم؟

- أريد منك خدمة.

قالتها شيماء وهي تفتح درج مكتبها لتخرج مظروفًا وقد دسّت بداخله تلك الورقة التي أخفتها منذ قليل عن عين أمها المتطفلة، وأغلقت المظروف بإحكام، ثم مدت به يدها فتناولته منها هدير:

- ليوسف. "قالتها شيماء بفتور شديد"

تهلل وجه هدير مستبشرًا، وأرادت هدير أن تمازحها، وأن تستغل هذا المظروف لتلقي كلمتين تُهدّئ بهما من موقف شيماء، لكن نظرة بعين شيماء وسط تلك التعابير الجافة بوجهها، جعلت هدير تبتلع كلماتها مع ريقها.

* * *

فاكرة زمان اللي إنت نسيته.. مش أنت القلب اللي أنا حبيته
قلبي وجعني.. ليه تخدعني.. وجعي معاك أنا كنت نسيته
كنت تعالي.. بصلي في عنيا.. كنت تعالي.. كنت تقول
جايز أسامحك.. جايز أزعل.. بس زعلنا ما كان هيطول
مين يمسح دمعي.. مين يواسيني.. ويدواي الألم اللي أنا حسيته
هموت وأشوفك.. هموت وأضمك.. بس السور إنت اللي بنيته
قلبي وجعني.. ليه تخدعني.. وجعي معاك أنا كنت نسيته

-33-

لم يمض يومان على آخر مقابلة بين شيماء وهدير إلا وقد اتصلت هدير طالبة للإذن من شيماء في الزيارة في موعد اتفقتا عليه، فرحّبت شيماء.

فكانت الزيارة بالفيلا حيث تقيم شيماء أيامها الحالية، وكان الزائرون مجموعة من الطلبة من الجنسين تترأسهم هدير.

فرحت عبير والدة شيماء بتلك الزيارة أيما فرح، فهي منذ أن هبطت شيماء بحزنها على البيت لم تر ابنتها في تلك الحالة من البساطة والبحبوحة في الحديث مع أحد، وأسرّها ما لمحته في عين ابنتها من التسلي والتبسط في الحديث مع صحبها من الطلبة.

غير أن شيماء لأول مرة تغادر غرفتها لتجالس أحدًا، وليس هذا فقط فقد سرّ عبير هانم أن ترى ابنتها قد ارتدت شيئًا جميلًا من ملابسها، وقد أمضت وقتًا يسيرًا في الزينة أمام مرآتها، فشعرت والدتها بحبور لتلك الزيارة ولامت نفسها كيف أن مثل هذا الحل قد غاب عن ذهنها وكيف أنها لم تفطن إليه من قبل؟

ضايفتهم عبير هانم هي وشيماء، وقدمت لهم المشروبات وبعض الكيك، وجلس الجميع في بهو الاستقبال بالفيلا، وتناوب الطلبة على مناغشة شيماء بالحديث الرقيق، وذاك بعد أن سألوها كثيرًا عن حالتها وعن سبب غيابها المتصل طويلًا.

وانخرطت شيماء معهم في الحديث والضحك بما جعل مسحة الحزن التي سيطرت على ملامحها كثيرًا تنسحب رويدًا رويدًا حتى كادت أن تغيب ويحل محلها أمارات الأنس والألفة والبال الرائق.

طال الحديث الممتع بين الجميع، وشرّق بهم الحديث وغرّب حتى وصل من ضمن ما تبادلوا الحديث فيه إلى حال الطلبة المتأخر عن الدراسة بسبب غياب شيماء، وإلى رغبتهم اللحوحة في مزيد تشويق وإثارة في دراسة ذاك المنهج المثير، ما بين بحث وتنقيب بالكتب والمراجع، وما بين مناقشاتهم مع شيماء.

فاستدرج الحديث جماعتهم واستمالهم إلى فتح باب على المنهج مرة أخرى، وكأن رغبة خفية في نفوس الجميع قد اتفقت ورحبت بفتح الكلام في هذا الموضوع، فانجر الجميع فجأة إلى الحديث عنه كما لو أنهم في محاضرة.

وكان فيما سأله الطلاب لشيماء تحت وطأة الفضول:

- نريد أن نعرف كيف كانت مصر على هذا القدر من التوحيد على الرغم مما امتلأت به الكتب عن وثنية المصريين القدامى وشركهم، وعن هذا الكم المهول من الآلهة التي عبدوها؟؟

صوت ثان:

- نعم.. هذه نقطة مهمة قد أثارت فضولي كثيرًا، يكفي أن فرعون وهو أشهر مشرك في تاريخ الأديان مصري، فكيف يجتمع هذا الكم من التوحيد مع كل هذا الكم من الشرك الذي وصلت إليه مصر في عهد فرعون؟

صوت ثالث:

- آه.. هذا من ضمن كثير من علامات الاستفهام التي حيرتني كثيرًا، كيف انتقلت الديانة المصرية القديمة من الإدريسية إلى الشرك إلى القبطية؟ أم أن الأقباط ليسوا مصريين؟؟

صوت آخر:

- هذا صحيح، هل الأقباط مصريون؟ وهل المسلمون أيضًا مصريون؟

صوت أنثوي:

- شغلتني هذه الاستفهامات فاستقر رأيي على أن هذا التباين من التوحيد والشرك يرجع إلى اختلاف الأجناس التي تعيش في مصر التي دخلتها بتجارة واستوطان واحتلال وغيرها، فأكيد أن عقيدة التوحيد قد تبدلت وتزاوجت واختلطت، كما أن دماءهم أيضًا قد تبدلت وتزاوجت واختلطت.

سمعت شيماء أسئلتهم وهي تغالب ضحكتها، وانتظرت حتى فرغ الجميع من أسألته، قبل أن تقول:

- أسالتكم رائعة، ومهمة فعلًا، سوف أجيبكم على جميعها.

فاستبشر الحضور وفرحوا وتهيأوا لسماعها، في حين أردفت شيماء:

- السنة المقبلة بإذن الله.

قالت جملتها فغادرت الابتسامة التي على شفاههم، فكان منظر الوجوم الذي فاجأهم مثيرًا للضحك لدرجة لم تقدر معها شيماء إلا على الاسترسال في ضحكة طال انتظارها منذ أن تركت شقتها، فقالت بنبرة غالبها الضحك:

- كان يجب أن تروا التعبير على وجهكم، ليتني أحضرت كاميرا الفيديو لتصوير هذه الجلسة.

ثم اعتدلت في جلستها، ووضعت كأسها من العصير على الطاولة:

- هذا كلام يستوجب كوبًا من الشاي بالقرنفل، ستشربون شايًا لن تذوقوا مثل حلاوته، ثم أردفت بزهو:

- أنا فقط معي سر الوصفة المضبوطة.

طلبت شيماء من إيفرينا الخادمة أن تعد الشاي بالخلطة السحرية، ثم توجهت إلى الجمع بالحديث:

- دعوني قبل أن أبدأ، أعيد عليكم الأسئلة التي سألتمونيها حتى لا نتشتت..

سألتموني:

عن كيف كانت مصر على هذا القدر من التوحيد على الرغم مما امتلأت به الكتب عن وثنية المصريين القدامى وشركهم؟..

وعن هذا الكم المهول من الآلهة التي عبدوها؟..

وعن أشهر كافر في تاريخ الأديان.. هو فرعون المصري؟..

وعن كيف انتقلت الديانة المصرية القديمة من الإدريسية إلى الشرك إلى القبطية؟..

وهل الأقباط ليسوا مصريين؟

وعن تبدل وتزاوج واختلاط الأجناس التي تعيش بمصر، وبالتالي تبدل وتزاوج واختلاط الدماء المصرية؟..

ثم نظرت شيماء في أعينهم، فلم تجد أحدًا زاد على ما قالت.

* * *

بالنسبة لما كان عليه المصريون القدماء من التوحيد الخالص، فذاك شيء معروف وقد تقدم ذكره طويلًا فيما سبق من محاضرات.

أما بالنسبة لمسألة الشرك والتعددية، فتلك نقطة يدور فيها مجال الكلام لاختلاف الأسباب التي جعلت من فكرة الوثنية عند المصريين القدماء تلتصق طويلًا بالأذهان والعقول.

أهم هذه الأسباب وأوضحها، ذاك الكره الأسود من بني إسرائيل ناحية المصريين القدماء، إلى الحد الذي يجعل العالم النفسي الشهير سيجموند فرويد _ وهو يهودي صميم.. متعصب _ يقول:

"إن عقدة اليهود الأزلية هي الحضارة المصرية القديمة"، فأعلنها على الملأ، هكذا، واضحة صريحة، تترجم نوايا اليهود ونفسيتهم ناحية الحضارة المصرية.

فجعل اليهود لا يدخرون جهدًا ولا وقتًا ولا فكرًا ولا مالًا في سبيل تشويه الرداء الأبيض الجميل للحضارة المصرية القديمة.

ولكن إنصافًا للحق والحقيقة، فإن مع تباعد المسافة بين المصريين القدماء وبين الأنبياء، وكما هو معروف وفي كل العقائد، فإن هذا البعد الزمني يحدث فجوة، تتسع كلما زاد عليها الوقت، فتصاب العقيدة بشيء من الضعف والخلخلة، فتظهر بعض مظاهر البدع، أو نتيجة للجهل بصحيح العقيدة فقد يقع أتباعها في الشرك وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، لكنه لا يتعدى أن يكون شركًا أحمق جاهلًا، وذاك لأنهم حتى في حالات شركهم كانوا يبتغون من ورائه التعبد لله، والتقرب إليه، فإذا صح التعبير يمكن أن نقول: "إنه شرك حسن النية، أو شرك يراد من ورائه عبادة الله".

ولذلك فقد ظهرت بعض مظاهر هذا الشرك، ولكن ليس من الإنصاف في شيء أن نضع هذه الحقبة الزمنية البسيطة _ إذا ما قارنّاها بزمن التوحيد الخالص _ تحت عدسة معظمة مكبرة ثم نهلل في كل الدنيا: "هذه هي عقيدة المصريين القدماء الوثنيين".

سأضرب لكم مثلًا:

لنفترض بأن بعد 1000 سنة من اليوم، جاء محدّث في مكان ما، ثم عرض بعض صور لجماعة _ مثلاً _ مثل داعش، ثم يقسم بأن هذا هو الإسلام كما جاء به رسول الله وكما تعلّمه منه الصحابة وعلّموه لمن أتى بعدهم، فهل هذا من الحقيقة في شيء؟؟..

هل هذه هي حقيقة العقيدة الإسلامية التي نزلت على محمد وعلّمها لأصحابه؟؟..

هذا بالضبط ما حدث من الحاقدين على الحضارة المصرية القديمة الموحدة، انتقوا أضعف أوقاتهم وأبعدها عن العقيدة السليمة، وسلّطوا عليها الأضواء، وصوّروها من كل زاوية لتظهر بأنها متعددة وكثيرة.

هذا إذا ما أضفنا السم الزعاف الذي بثه الكهنة المتربّحون من وراء الدين في عقول الناس البسطاء، فدائمًا هم آفة كل دين ونكسة كل عقيدة، وقد تقدم ذكر هذه النقطة بشيء من التفصيل قبل ذلك، فدائمًا عند انتشار الجهل والبعد عن تعلم صحيح العقيدة وما جاورها من علوم دنيوية وطبيعية، تجد العقول ركوبة سهلة لتركبها الكهنة في كل وقت وفي أي ديانة، وليست العقيدة المصرية القديمة فقط.

ويبقى السبب الأوسع انتشارًا، والذي أسهم بشكل كبير في اتهام العقيدة المصرية القديمة بالوثنية والشرك، وهو أن كل من تكلم عن الحضارة المصرية عمومًا، كان جاهلًا جهلًا تامًا بالكتابة الهيروغليفية.

فأنا أعجب من جاهل باللغة، ظلّت اللغة مبهمة محيرة بالنسبة له، ومع ذلك لم يتحر أي دقة ولم يلتمس أي إنصاف حين قرر أن يفتي ويتكهن ويسرح بخياله في الحديث عن الحضارة المصرية.

فظن أغلب الناس حتى صار اعتقادًا سائدًا عند معظمهم التصق بالأذهان بغراء قذر لا يفلح معه الغسيل أو التنظيف، أن المصريين وثنيون.. مطلسمون.

وبالطبع هذا تصور واعتقاد خاطئ لم يقترب حتى من الحقيقة، فأنا غير مسئولة عن تكهناتك عن المصريين، وكلها تكهنات محض خيال لا تستند إلى أي شيء من الحقيقة الملموسة.

لكن مع مرور الوقت وتقدم العلم وفك رموز حجر رشيد ومعرفة الكتابة الهيروغليفية، وما تكشفه لنا الاكتشافات الأثرية من منحوتات ورسومات، تؤكد بما لا يدع للنفس مجالًا للشك ولا يدع للعقل مجالًا للحيرة، بالنصوص والبرديات والجداريات والأحافير، بأن المصريين القدماء قد تفجرت العقيدة السليمة من بينهم، وصرخ التوحيد بقلوبهم في وجه أي حاقد وناقم ومفتري.

❋ ❋ ❋

-34-

وصلت إيفرينا تمشي بخطوات صغيرة وهي تدفع بعربة تتراص على سطحها فناجين شاي، وسكرية، وإبريق خزفي كبير للشاي بالقرنفل.

قدمت إيفرينا الشاي للجميع بعدما أصرّت شيماء بأن يتذوق الجميع خلطتها السحرية، وتوقفت عن الكلام حتى يتسنى لهم التقاط بعض رشفات من الشاي، وانتظرت منهم المديح، وقد حصلت على مرادها، فقد أثنى الجميع على المذاق الرائع للشاي.

* * *

حقيقة تعدد الآلهة والمعبودات عند المصريين القدماء..

الإله الواحد الخالق كما تعلّم المصريون القدماء من نبيهم إدريس، إله خفي لا تدركه الأبصار، لكننا نستدل عليه من خلال صفاته وقدراته، فجعل المصريون القدماء _ من خلال نبيهم والعلماء من رجال الدين _ يضربون مثلًا ملموسًا ووصفًا حسيًا لقدرة الله وصفاته، فطفقوا يشبهون صفاته بصفات مخلوقاته.

فمثلًا وصفوا نوره بالشمس.. وصوّروا علوه في السماء بالصقر، وفيض عطائه بالنيل، وعقابه بالكوبرا.... وهكذا.

فصارت مخلوقات الله رمزًا اتخذه المصريون القدماء للدلالة على صفاته، ومن هنا حدث أمران:

الأول؛ بأنه بعد مرور الزمن وفرار العلماء من الاضطهاد بالهجرة وموت الكثير منهم، وبُعد الزمن، صار بعض المصريين القدماء عن جهل يتقربون

لهذه المخلوقات باعتبارها صفات الله، وظنوا بأن التقرب من هذه المخلوقات التي تعبر عن صفات الله هو في حد ذاته تقرب من الله نفسه.

الثاني: فإن الكهنة المتربحين من وراء ستار الدين قد أعجبتهم تلك اللعبة المربحة، فجعلوا من كل صفة دالة على الله، مذهبًا مستقلًا ومعبدًا خاصًا بعبادة الله من خلال هذه الصفة وحدها دونًا عن باقي الصفات، فظهرت الأحزاب وتعددت المذاهب وانشقّت العقيدة.

وذاك هو ما حدث مثلًا في زمن إخناتون، إذا دعا كهنة طيبة لعبادة الله "آمون" أي الله الخفي للدلالة على اسم من أسماء الله الحسنى "الباطن" أي الذي لا تراه الأعين، فيما دعا إخناتون إلى عبادة الله "آتون" أي الله الظاهر للدلالة علي اسم من أسماء الله الحسنى "الظاهر" ورمز له بقرص الشمس للدلالة على صفة الله الظاهر.

وبالطبع أهم هذه الأسباب التي ادَّعت كذبًا بتعدد الآلهة عند المصريين هي الجهل بالكتابة الهيروغليفية، مما فتح مجالاً واسعًا للتخمين والفتوى، ولم يكن لأحد ليرد هذه الادعاءات وذاك لأن الجميع _فيما مضي_ يجهل أسرار الكتابة الهيروغليفية.

لكن بعد فك رموز حجر رشيد، وتعلم الكتابة الهيروغليفية وجد العلماء أن هناك كلمة عجيبة.. جميلة، تكفي هذه الكلمة بذاتها.. ولوحدها، بأن ترد على كل هذه الافتراءات، وهي كلمة "نتر"، وهذه الكلمة وجدوها سابقة _تقريبًا_ قبل اسم كل رمز "أي سابقة قبل اسم كل إله كما كانوا يظنون"، ولكن في الحقيقة أن العلماء اكتشفوا ثم أوضحوا بأن هذه الكلمة تعني.. "المنتسب إلى العرش"، فكانت هذه الكلمة وحدها أكبر دليل للرد على هذه

الأكاذيب، بأن ما ظنه المدعون بتعدد الآلهة، وأن كل هذه الأسماء من رع.. أتون.. آمون.. وغيرها، ما هي إلا أسماء وصفات منتسبة إلى العرش، أي منتسبة إلى الله، أي أنها أسماء للدلالة علي مخلوقات الله.. وأسماء صفات الله.

والخلاصة في ذلك أن كل ما تم الترويج له بكثرة وتعدد الآلهة عند المصريين القدماء كان مغلوطًا.. جدًا.

إذ إنها أسماء للدلالة على مخلوقات وصفات الله "المنتسبة إلى العرش".. وليست آلهة.

❋ ❋ ❋

-35-

فرعون.. أشهر كافر في تاريخ الأديان..

استعدوا للمفاجأة.. المعروفة منذ زمن قديم.. لكنها تغيب عن معظم الأذهان..

فرعون موسى.. لم يكن مصريًا من الأساس..

تاتاتاتاااااااااه..

والمفاجأة الأكبر.. بأن فرعون اسم للدلالة على علم "أي اسم شخص"، وليس لقب..

تاتاتاتاااااااااه..

* * *

أما عن كونه ليس مصريًا من الأساس، ولا يمت بأي صلة للمصريين..

فإنه فيما تقدم قد تحدثنا عن أن سنة الله في اختيار أنبيائه أنه يجعل النبي من نفس جنس ولسان قومه..

ومن هنا يجذبنا الكلام إلى سؤال مهم..

هل كان نبي الله موسى عليه السلام مصريًا؟؟..

وهل نبي الله موسى أرسل إلى المصريين؟؟..

وبالإجابة على هذه الأسئلة سنعرف إذا كان فرعون موسى مصريًا أم غير ذلك..

وهل أرسل موسى عليه السلام إلى المصريين أم أن المصريين كانوا على التوحيد الخالص الذي لا يستدعي أن يرسل الله لهم نبيه موسى ليردهم إلى الدين الصحيح؟؟..

نبي الله إدريس عليه السلام أرسل إلى المصريين خاصة، وإلى كل الناس عامة، وفي ذلك دليل إلى وحدة النسل ووحدة اللغة _ مع اختلاف اللهجات _ في زمنه..

نبي الله إبراهيم أرسل إلى أبناء جنسه ولغته من الآراميين، وتتبعهم في كل البلاد التي سكنوها، سواء في العراق أو في فلسطين، أو في مكة، أو الذين عاشوا في مصر واحتلوها "الهكسوس"..

ومثلهما تمت بعثة باقي الأنبياء داود.. وسليمان.. وعيسى.. وغيرهم، أرسلوا إلى نفس جنسهم ولغتهم..

وفي ذلك قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم "فيما ورد في تفسير بن كثير – المجلد الأول":

"لم يبعث الله نبيًا إلا بلغة قومه".

والجزء المهم في حديثنا هو أول احتلال لأرض مصر، إذ كان من جماعة وصفت بأكثر من صفة حسب اللسان الذي وصفها، فأسموها "عماليق.. الرعاة.. الملوك البدويون.. الهكسوس"، وكلها أسماء تدل على نفس الجماعة.

وتزامن مع دخول العماليق "الهكسوس" إلى مصر بعثة نبي الله إبراهيم، فأرسله الله إليهم، وذلك لأنهم بالرغم من أنهم قبائل مختلفة، إلا أنهم ينحدرون جميعًا من جنس ونسل الآراميين..

ولذلك اقتضت سنة الله في اختيار النبي المرسل إليهم بأن يكون هو الآخر آرامي، ويتحدث باللسان الآرامي..

وفي ذلك تتعدد المراجع، منها على سبيل المثال لا الحصر: التوراة وبعض التفاسير التوراتية، والطبري في تاريخه، وابن ظهيرة في الفضائل الباهرة، وابن إياس في بدائع الزهور..... وغيرها الكثير..

جميعهم أجمعوا وأكدوا أن أول ملوك الهكسوس بمصر هو الملك الذي عاصر إبراهيم عليه السلام، وهو الملك الذي أهدى هاجر المصرية إلى سارة زوجة الخليل إبراهيم عليه السلام.

ومن بعد إبراهيم أرسل الله لجنس الآراميين ولده إسحاق، ومن بعد إسحاق أرسل الله لهم يعقوب، ومن بعد يعقوب أرسل الله لهم يوسف..

فكل هؤلاء الأنبياء _ إبراهيم وأولاده_ قد أرسلوا إلى بني جنسهم من الآراميين، والذين منهم الهكسوس..

وعلماء التاريخ والمؤرخين المسلمين والباحثين في التاريخ المصري القديم أجمعوا بالأدلة أن نبي الله يوسف عليه السلام قد أرسل إلى ملوك الهكسوس بمصر.. وأن صاحبيه في السجن اللذان ذكرهما القرآن في سورة يوسف هما أيضًا من الهكسوس المشركين..

وفي ذلك يقول ابن كثير_ عن المصريين زمن النبي يوسف عليه السلام _ في قصص الأنبياء المجلد الأول:_

"إلا أن أهل مصر يعلمون أن الذي يغفر الذنوب هو الله وحده، لا شريك له في ذلك".

وموسى عليه السلام من بني إسرائيل..

إذ إن إسرائيل هو نبي الله يعقوب، وكل من أتى من ولده _ نفس جنسه _ سمي ببني إسرائيل "وهم القوم الذي أرسل لهم موسى عليه السلام"..

ودخل بنو إسرائيل مصر حين دخلها يعقوب هو وبنوه، وبنو بنيه، وذاك ما ذكرته المراجع ومن ضمنها التوراة في سفر التكوين 6:7/46.

ويعقوب من جنس الآراميين..

إذن فنبي الله موسى من جنس بني إسرائيل.. أي الآراميين، أي من نفس الجنس الذي ينتمي إليه الهكسوس..

وبالطبع فقد أرسل موسى إلى نفس جنسه، وهم الآراميون، ومنهم الهكسوس..

فموسى هو: موسى بن عمران.. بن قاهث.. بن لاوي.. بن يعقوب "إسرائيل"..

وموسى عليه السلام هو حفيد يعقوب أي من بني إسرائيل، الآراميين، و ليس من المصريين و بالتالي أرسل لبني جنسه وليس للمصريين.

وفرعون، الذي ولد في زمنه نبي الله موسى هو خامس ملوك الهكسوس.. والذي حكم 50 سنة..

والغريب والمحزن في الموضوع بأن كثيرًا من المراجع حتى التوراة نفسها، وذاك أيضًا ما تؤكده الكثير من المراجع التاريخية والإسلامية، تؤكد هذه

الحقيقة، حتى القرآن يُوثّق بأن أحد أركان دعوة موسى لفرعون هي أن تُنهي بني إسرائيل احتلالها وتخرج من مصر لكن فرعون قابلها بالرفض لينعم برغد العيش وسط الأنهار والجنّات والخير بأرض مصر، وللأسف لا أحد ينتبه لذلك، حتى كثير من الشيوخ والدعاة المسلمين.

❋ ❋ ❋

-36-

- إذن يا دكتورة من كلامك نفهم بأن فرعون ليس هو رمسيس الثاني؟

- بالضبط.

- لكننا سمعنا هذا كثيرًا في عشرات الكتب، ومن أفواه كثير من العلماء، أنا حتى سمعتها بنفسي في مقطع فيديو على اليوتيوب للداعية الكبير محمد حسان وغيره.

- للأسف بأن هذه هي الحقيقة التي لا تقبل الجدل..

فالداعية محمد حسان روّج هذا الافتراء الكاذب نقلًا عن موريس بوكاي اليهودي الفرنسي من أصل مغربي، صاحب كتاب "التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث"..

وللأسف أن هذا الكتاب كارثة حقيقية، تتدثّر تحت رداء حب الإسلام وإثبات صحة رسالة النبي محمد عليه السلام، واستطاع موريس بوكاي بخبث أن يدس السم في العسل، وأن يحقق لكتابه انتشارًا واسعًا في الدول العربية، وأن يحقق مبيعات لم يكن ليحلم بها لولا أن ساعده علي ذلك حماس المسلمين البسطاء الذي أغفلوا تقفي الحقيقة وانساقوا خلف كلماته المعسولة فيما يزعمه موريس بوكاي بأنه دفاع عن القرآن وعن النبي محمد عليه الصلاة والسلام، حين قال مقولته الشهيرة:

"فالقرآن فوق المستوى العلمي للعرب، وفوق المستوى العلمي للعالم، وفوق المستوى العلمي للعلماء في العصور اللاحقة، وفوق مستوانا العلمي

المتقدم في عصور العلم والمعرفة في القرن العشرين، ولا يمكن أن يصدر هذا عن أمّي وهذا يدل على ثبوت نبوة محمد وأنه نبي يوحى إليه".

وبهذه المقولة وغيرها استطاع موريس بوكاي أن ينوّم المسلمين تنويماً مغناطيسيًا، ويجعلهم على أتم الاستعداد لتصديق كل القيء الذي تقيأه في كتابه.

وغفر الله للداعية محمد حسان حين لم يتحر الدقة في النقل عن موريس بوكاي في أكذوبته التي تروج كذبًا وافتراءً بأن فرعون موسى هو رمسيس الثاني، وليس هذا فقط، بل بمنتهى الجرأة على الكذب أفتى بوكاي بأن موسى عليه السلام قد عاصر اثنين من الفراعنة، أحدهما الفرعون الذي رباه وليدًا، والآخر هو الفرعون الذي دعاه إلى الله ثم غرق بعدها في اليم.

وأنا لأعجب شديد العجب من هذا الداعية الكبير حين أغفل كثيرًا من المراجع الإسلامية والتي هي في الأساس مجال علمه ودراساته مثل الطبري في تاريخه، وابن كثير في تفسيره وفي قصص الأنبياء أيضًا، وابن خلدون في العبر، وابن ظهيرة في الفضائل الباهرة، والمسعودي في مروج الذهب، وابن إياس في بدائع الزهور، والدينوري في الأخبار الطوال..

وأحزن كثيرًا من هذا الداعية حين أغفل التدقيق والتحقيق، ولم يسمع من الشيخ السلفي المشهور ابن عثيمين حين قال ردًا على أحد الأسئلة:

- هل فرعون موسى هو صاحب المومياء المشهورة بالمتحف المصري؟ "والسائل يقصد مومياء رمسيس الثاني"

فما كان جواب الشيخ السلفي الكبير "ما معناه":

- وهل يصدق عقل أن جثة فرعون الذي سقاهم أشد العذاب تكون أمامهم ثم يتركونها هكذا دون ثأر وانتقام، لو كانت جثة فرعون أمامهم لقطعوه إربًا، ولفتتوا عظامه.

ورأي ابن عثيمين يحترم كثيرًا العقل ويتماشى مع المنطق، ويتوافق مع النفس البشرية التي ذاقت مرارة الظلم واحترقت بأشد ألوان العذاب، وليس القذافي وشعبه منا ببعيد..

فمن يصدق بأن بني إسرائيل ستهمل ثأرها من فرعون، وتتركه يمضي إلى مقبرته الملكية بسلام، وتترك جثته تدخل المعبد الجنائزي للتحنيط والتكريم وإقامة الشعائر الجنائزية، ثم يدفن بعدها في مقبرة ملكية؟؟؟

هذا غير مئات الكتب والمراجع التاريخية، وكتب التأريخ الإسلامي في العصر الحديث.

- نفهم من ذلك أن كتاب موريس بوكاي لا يعوّل عليه في دراسة تاريخ موسى وفرعون؟

- لا يعول عليه ألبتة.

- وأن فرعون موسى لم يكن رمسيس الثاني، ولم يعاصر موسى عليه السلام اثنان من الفراعنة؟

- هذه هي الحقيقة ولا شيء غيرها.

- نحتاج إلى شرح.

* * *

هل سمعتم عن الملك المصري الذي تتعامد الشمس على وجهه مرتين في السنة، مرة يوم مولده ومرة يوم توليه العرش؟؟

ذاك هو الملك المصري العظيم رمسيس الثاني، أعظم ملوك الحضارة المصرية القديمة على الإطلاااااااق.

* * *

- يمكننا بكل سهولة ويسر نسف مزاعم موريس بوكاي، والتي في مجملها باختصار: إنه كان على رأس فريق علمي قاموا بفحص مومياء رمسيس الثاني في فرنسا، حين تم التقدم بطلب إلى الرئيس السادات، وعليه فقد تم إرسال الملك العظيم رمسيس الثاني إلى فرنسا في ثمانينيات القرن الماضي، وحسب ادعاء موريس بوكاي أنه أثبت بالفحص العلمي والطبي بأن ثمة انتشار واضح للملح في مسام جلد الملك العظيم المفترى عليه رمسيس الثاني، وبناء على ما يدّعي بأنه اكتشاف عظيم فقد أعلن موريس بوكاي بأن هذا الملك قد مات غرقًا في ماء البحر المالح.

أولًا: الرئيس السادات قد توفي عام 1981، وأن مومياء الملك خرجت إلى فرنسا عام 1977، وليس في الثمانينيات إطلاقًا، مضافًا إلى ذلك أن موريس بوكاي لم يكن ضمن الفريق العلمي الذي فحص المومياء بفرنسا فضلًا عن أنه لم يكن بفرنسا كلها وقت وجود المومياء..

رمسيس الثاني حسب ما هو مدون في عشرات البرديات والجداريات مات متأثرًا بكهولته على سريره حيث عاش لما يقرب من مئة عام وحكم سبعة وستين عامًا، فمن أين تسرّبت أملاح البحر إلى جلده حتى امتلأت بها مسامه؟؟؟؟

هذا إذا أخذنا بالاعتبار كهولة رمسيس الثاني الذي بلغ من العمر عتيًا حين مات، بما لا يدع للعقل مجالًا أن يتخيل هذا الكهل المتأثر بأمراض

الشيخوخة أن يركب عجلته الحربية ويقود جيشه ويتتبع خروج موسى وبني إسرائيل، ويطاردهم أيامًا لكي يقضي عليهم..

جميع المومياوات لا بد أن تغوص في ملح النطرون أربعون يومًا قبل التحنيط، فوجود الأملاح في مسامات جميع المومياوات أمر طبيعي..

إذا كان رمسيس الثاني هو فرعون الذي غرق، فلماذا لا نرى على مومياءه آثار الغرق من التحلل الرمي للجلد واللحم، وسقوط الشعر، وجحوظ العينين، وتصلب الجسد على نفس الهيئة التي مات عليها غريقًا، بل بالعكس تشهد مومياؤه إلى سلامة جسده، وإلا فالتفسير الوحيد أن فرعون غرق وانتشل من البحر وتم تحنيطه في ساعة واحدة يكون فيها الجسد لازال رطبًا لينًا حتى يتمكن المحنطون من معالجة وضعية جسده من التصلب إلى التمدد والاسترخاء..

لم يرد في التقرير الطبي المزعوم أن رمسيس الثاني قد امتلأت رئتاه بالماء أو أي أثر لإسفسيكيا الغرق، وهذا دليل ينسف مزاعم موته غرقًا..

فرعون موسى لم يكن ينجب الذكور، ولذلك قامت زوجته "آسية بنت مزاحم" بتبني موسى عليه السلام، في حين أن رمسيس الثاني لديه مئات الأبناء من الذكور، فكيف يكون رمسيس الثاني هو فرعون موسى؟

وهو الأمر الذي جعل من موريس بوكاي يراوغ حين تم صدمه بهذه الحقيقة، فجعل يهرطق ويؤلف بأن موسى عليه السلام عاصر اثنين من الفراعنة، الأول هو رمسيس الثاني، والثاني هو ابنه منفتاح، ولو سلمنا له بهذا الافتراض فسؤال هام يطرح نفسه:

إذا كان حسب ادعائه رمسيس الثاني هو الفرعون الذي ربى موسى، وابنه منفتاح هو الذي مات غرقًا، فكيف تظهر آثار الغرق المزعوم الذي مات به منفتاح على أبوه رمسيس الثاني الذي مات على فراشه؟؟؟

هذا بالإضافة للمفاجأة المذهلة بأن حادثة الغرق، وأن البحر الذي انشق لموسى لم يكن بحرًا مالحًا من الأساس، بل كانت مياه عذبة صالحة للشرب، ولم تكن أبدًا مياه بحر مالح، حيث تم عن عمد تحريف ترجمة بحر البوص العذب من "Reed Sea" إلى البحر الأحمر.."Red Sea"

وكما أوضحنا سالفًا فإن الهكسوس هم قوم فرعون، وهم أيضًا قوم موسى..

وأن الهكسوس تم طرهم نهائيًا علي يد أحمس مؤسس الأسرة 18..

فكيف؟؟؟؟؟

إذ إن المراجع أجمعت وعلى رأسها التوراة نفسها، وغيرها من المراجع الإسلامية والتاريخية بأن:

إبراهيم عاصر أول ملوك الهكسوس..

وحفيده يوسف، ولاوي بن يعقوب أخو يوسف، وولده قاهث عاصروا ثاني ملوك الهكسوس.. والذي حكم 44 سنة..

وموسى عليه السلام هو: موسى.. بن عمران.. بن قاهث..

أي أن بين موسى عليه السلام وبين جده قاهث جيلين فقط، بل وأقل..

ثم تنتهي الأسرة الهكسوسية الأولى التي تضم 6 ملوك..

و الأسرة الهكسوسية الثانية التي تضم 32 ملكًا هكسوسيًا..

والأسرة الهكسوسية الثالثة التي تضم 40 ملكًا هكسوسيًا..

ثم يتم طرد الهكسوس من مصر على يد أحمس مؤسس الأسرة المصرية 18..

والأسرة المصرية 18 تضم 14 ملكًا مصريًا، تبدأ بأحمس وتنتهي بحور محب..

ثم تبدأ الأسرة المصرية 19..

ويفوت أول ملك، وثاني ملك، ثم يأتي رمسيس الثاني ثالث ملك..

وبعد كل هذه الأجيال الطوووووويلة، لم يكن عمران بن قاهث "الذي عاصر ثاني ملوك الهكسوس" قد ولد ابنه موسى بعد؟؟؟؟

أي أن عمران بن قاهث قد استغرق فترة حكم 94 ملكًا "74 ملكًا هكسوسيًا، ومن بعدهم 20 ملكًا مصريًا" لكي ينجب عمران ابنه موسى..

ما درجة مصداقية كلامي لو أخبرتكم بأنني ولدت في زمن السادات وأبي ولد في زمن صلاح الدين الأيوبي؟؟؟؟

دخل الهكسوس مصر في زمن الأسرة المصرية 13..

فرعون موسى في الأسرة 15..

تم طرد الهكسوس من مصر على يد أحمس في الأسرة 18..

رمسيس الثاني هو ثالث ملوك الأسرة 19..

كيف يكون هو إذن فرعون موسى؟؟

ثم أن الله أخبر في قرآنه أنه دمر ما كان يفعل فرعون، وآثار رمسيس الثاني ملء العين والأبصار في كل مكان بمصر، باقية لتشهد بعظمته، ولتنفي عنه أنه فرعون الذي دمر الله ما كان يفعل..

وكذلك تخبرنا التوراة نفسها بأن جثة فرعون قد غرقت في اليم ولا زالت في بطنه، ولم تظهر..

فماذا بعد الكتب المقدسة من التوراة والقرآن، وماذا بعد كل هذه المراجع التاريخية الدينية والأثرية؟؟

وليس هذا فقط، بل ما هو أجمل من ذلك هو أن باحثة فرنسية في التاريخ المصري تدعى "كريستين لاروش دي نوبل كور"، ألفت كتابًا كبيييييرًا بعنوان: "رمسيس الثاني"، تدافع فيه عن هذا الملك العظيم، وتبرئه من هذه التهمة القبيحة، وقد باعت مليون نسخة من هذا الكتاب، حتى أنهم أطلقوا على مؤلفة الكتاب "صاحبة المليون نسخة"..

إلي هنا شعرت شيماء بإجهاد بحنجرتها، وجفاف بحلقها، ولمست إعياءً طفيفًا يصيب لسانها من كثرة الحديث، فآثرت بأن تشير عليهم بأن يبحثوا بأنفسهم في الجزئية الأخيرة، ولتقديم المساعدة أشارت عليهم بأن يبدأوا بكتاب رائع، هو: "فرعون ذو الأوتاد" لأحمد سعد الدين.

وأخبرتهم بأن في هذا الكتاب من الأدلة التي تثبت بأن فرعون موسى كان فرعونًا واحدًا لا اثنين حسب ما روّجته المزاعم والافتراءات والإسرائيليات، ويمكن نسف هذه الافتراءات بدليل واحد فقط وهو أن فرعون هو اسم شخص وليس لقبًا للملك، وعليه فإن ذكر فرعون في القرآن كان للدلالة على اسم شخص بعينه لا للدلالة على ملك أو ملكين كما انتشرت الإشاعات.

- سؤال أخير!

ابتسمت شيماء، وأومأت برأسها دليل الموافقة.

- تقولين حضرتك بأن فرعون ليس مصريًا، وأن فرعون هو اسمه وليس لقبه.

- مضبوط.

- وقد قرأت مقالًا على الإنترنت نقلاً عن الدكتور سعد الدين الهلالي يقول أيضًا بأن فرعون ليس مصريًا، وأن اسمه الحقيقي هو "الوليد"، وقد أزلتِ عني إبهام أن فرعون ليس مصريًا، لكن هل كان اسمه فرعون أم الوليد؟

- اممم، كان اسمه الاثنين.

- هه؟

- كان اسمه باللغة الآرامية فرعون، وباللغة العربية وليد..

الأسماء في اللغة الآرامية كانت تضاف إلى معظمها "ون" أو "ان"..

وذاك نجده علي سبيل المثال في:

"فرعون.. قارون.. هارون.. شمشمون.. جعدون.. شمعون.. عمران.. هامان"..

حتى في أسماء البلدان نجد مثلاً: صيدون "اسمها الآن صيدا".. وهكذا..

وكما قلنا فإن الألسن كانت مختلفة كاختلاف اللهجات في الإقليم الواحد..

وإذا حذفنا مثلًا الـ "ان" من هامان، صارت هام..

وهام إذا رددناها إلى اللغة العربية نجدها بمعنى الطويل.. أو صاحب الهامة.. أو طويل القامة.. أو صاحب الهيمنة..

وكذلك إذا حذفنا الـ "ون" من فرعون، صارت فرع..

وفرع إذا رددناها إلى اللغة العربية فمعناها الفارع أو المتفرع أو الفرع.. وصفة الفرع صفة قريبة جدًا من صفة الولد، لأن وليد هي تصغير كلمة ولد..

ولذلك نجد أن إدريس في اللسان العربي، هو أخنوخ باللسان العبري..

وعلى سبيل المثال:

فإن الشخصية السينمائية المعروفة "Batman" ، تترجم إلى شكلين..

إما "باتمان"، وإما "الرجل الوطواط"، وكلاهما نطقين مختلفين لصفة واحدة للدلالة على نفس الشخص.

-37-

تغيرت نبرة شيماء بما لا يخفى على الطلبة الزائرين، ولمسوا في صوتها الإجهاد من كثرة ما تكلمت، فآثروا الصمت قليلًا، لكن جذوة نار قد أشعلها الفضول والتشويق في نفوسهم، في حين قطع ذاك الصمت القصير صوت أتاها على استحياء:

- يبدو أننا أثقلنا عليك بأسئلتنا.

ضحكت شيماء تجامله:

- لا، بالعكس، فأنا دائمًا استمتع بمثل هذه النقاشات وانسي معها أي إجهاد يراوضني.

ثم أمعنت النظر في عين المتحدث:

- يبدو أن وراؤك شيئًا تريده!

- في الحقيقة نعم، لكني أخشى أن أكون قد أثقلت عليك.

- لا تقول هذا، هات ما ورائك.

- هل الأقباط ليسوا مصريين؟ وهل المصريون الحاليون هم أناس مختلطة الأجناس؟

- سؤال جميل.. وهو على خلاف ما تقدم الحديث عنه اليوم فهذا يمت منهج دراستنا أكثر..

فيا ليت أحدكم يقوم بتسجيل الكلام الآتي على هاتفه، وتتناقلونه فيما بعد.

فأخرج أحدهم هاتفه وبدأ في التسجيل، ووضع الهاتف على الطاولة في مقربة من شيماء.

* * *

بالنسبة لسؤالك الأول فيما يخص الأقباط، فهو سؤال خاطئ تمامًا.

اشرأبت الرقاب حول شيماء، وحملقت فيها العيون باستغراب واهتمام، في حين استكملت هي:

- خاطئ لسبب بسيط، وهو على خلاف ما هو سائد عند بعض الناس بأن القبطية هي النصرانية، وتلك معلومة خاطئة تمامًا، تعالوا معي لنصححها..

الأقباط هي صفة للدلالة على جنسية المصريين، وليست للدلالة على ديانتهم..

أي أن معنى كلمة أقباط هي: "مصريون"، وليس مسيحيين..

وإلا دلّني على أمة مسيحية واحدة غير المصرية يقال لها أقباط!!!!

وهل لكل ديانة لغة؟ فهل اللغة القبطية لغة دين أم لغة قوم؟

ثم انتظرت شيماء قليلًا وهي تراقب علامات الحيرة والتفكر على وجوه الطلبة، ثم أردفت:

- فالأقباط إذًا لا تعني المسيحيين، فماذا تعني إذًا؟؟؟..

تعني المصريين!..

وهنا شيء طريف في هذه الجزئية..

الأسماء تترجم إلى أي لغة كما هي..

فمحمد .."Mohammed" وشيماء.."Shimaa"

وكذلك أسماء الدول..

أمريكا .."America" لبنان .."lebanon" اليابان .."Japan" وهكذا..

أما مصر؟؟؟!!!

هل .."Misr" أم"Egypt" ؟؟!!

لماذا إذن ترجمت مصر بـ"Egypt" ؟

منذ فجر الحضارة المصرية قد أطلق على مصر "جبتاه"، أي أرض الإله..

ومن هذا الاسم الذي أطلق عليها قديمًا تم ترجمة اسم مصر "جبتاه" إلى "Egypt"..

وبالتالي أطلق على المصريين: "جبتيين" "Egyptians" ، أي المصريين..

ومع مرور الوقت وتطور اللغات صارت تنطق كلمة "الجبتيين"، "القبتيين"..

وذاك يرجع إلى قرب النطق لحرف الجيم في العامية المصرية من مخرج حرف القاف المفخم..

فالقبط هم "الجبت" "بالجيم المصرية"، أي ساكني أرض الجبت "جبتاه"..

وقد تسمى المصريون بالقبطيين أو الأقباط قبل دخول المسيحية إلى مصر بزمن بعيد..

فالقبطية كلمة تدل على الجنسية المصرية، وليس على الديانة المسيحية..

أما عن كون المسيحيين هل هم أهل مصر أم قوم آخرين جاءوا بالمسيحية وعاشوا بمصر؟؟

فهذا شيء بسيط جدًا.. إذ إنه لا يصح أن نربط بين الجنسية والديانة..

فتغيّر ديانة قوم وتبدّلها من ملة إلى أخرى، لا يعني أبدًا تبدل جنسيتهم أيضًا..

فالمصريون على ملة إدريس هم أنفسهم المصريون المسيحيون..

وإلا إذا اعتبرنا مثلًا بأن الإسلام ديانة مستحدثة على أرض مصر بعد المسيحية، وأنهم بذلك صاروا غير مصريين..

فمن حق الصابئة "ملة سيدنا إدريس" الذين يعيشون إلى الآن بأن يتهموا المسيحيين بأنهم ليسوا أيضًا من أهل مصر، وذاك لأن المسيحية ديانة مستحدثة بعد الصابئة..

فهل هذا يصح؟؟

لا يصح أبدًا أن نفهم بأن ثمة علاقة بين تغير الملة وتغير الجنسية..

يمكن أن تتبدل الملة عشرات المرات، لكن الجنسية هي هي لم تتبدل، إنما تبدل الاعتقاد والدين فقط..

فالمسيحيون ليسوا ضيوفًا بل هم مصريون تحولوا من الصابئة إلى المسيحية..

والمسلمون ليسوا ضيوفًا بل هم مصريون تحولوا من المسيحية إلى الإسلام..

جميعهم أقباط.. أي مصريين..

وهناك دليل آخر يؤكد ما أقوله، وهو هو الإجابة على سؤالك الثاني فيما يخص اختلاط أجناس المصريين، وهو وحدة الدم والجنس عند جميع المصريين وأنهم للآن ليسوا أجناسًا مختلفة.

* * *

وتوجد عشرات الأبحاث التي تؤكد نفس هذه النتيجة العلمية، وعلى رأسها البحث العلمي، الذي تم مناقشته في قاعة المؤتمرات بكلية الطب بالقوات المسلحة، والمقدم من الباحثين:

عقيد طبيب/ طارق أحمد طه.. رئيس قسم المناعة والبصمة البشرية، وعقيد مهندس/ ساجي السيد محمد..

والبحث بعنوان: "وضع خارطة البصمة الوراثية للجينات المصرية وتطبيقها في المجالات المدنية والعسكرية"..

والذي يفيد بالدليل أن جينات المصريين.. المسلمين والمسيحيين واحدة ومتطابقة بنسبة 99٪، وهي نفسها جينات توت عنخ آمون..

أي أن المصريين حافظوا على وحدة جنسهم منذ آلاااااف السنين..

والعالم المصري سليمان حزين فى كتابه "تاريخ الحضارة المصرية _ العصر الفرعوني"، يقول:

"إن القبائل العربية التي نزحت فى العهد العربي إلى وادي النيل الأدنى لم تؤد إلى حدوث أي تغيير فى تكوين المصريين العام نتيجة لموجات العرب المتلاحقة".

وفي كتاب "القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة" للدكتور عبد الله خورشيد البري، يقول:

"يرجع عدم تغير تكوين المصريين العام بقلة عدد العرب الوافدين بالنسبة لمجموع الشعب المصري.. وهذه الظاهرة نلاحظها فى جميع مراحل تاريخ مصر.. فقد توافد على المصريين كثير من الأجناس المختلفة امتزجوا بالمصريين امتزاجًا دمويًا دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير خصائص المصريين

الجنسية.. لأن هؤلاء الوافدين كانوا يفلحون فقط في تجديد دماء المصريين دون تغييرها إذ لا يلبث الشعب حتى يهضمهم ويتمثلهم.. وكان ذلك أحد عوامل احتفاظ المصريين بحيويتهم عبر العصور".

شيماء:

- أقرأ السؤال الذي يدور في ذهنك الآن: هل كل ما ذكرته حقيقة أم أنه مجرد تحيّز وتعصب إلى الجانب المصري؟

إذا داعب هذا السؤال عقلك، فإليك كثير من الباحثين الأجانب، قد أكدوا بما لا يدع مجالًا للشك هذه الحقيقة، ولا نظن بأن هذا الكم من العلماء والباحثين الأجانب متعصب ومتحيز إلى الجانب المصري علي حساب الحقيقة، إلا أنها فعلًا.. الحقيقة.

في بحثها الرائع، قامت العالمة الأمريكية مارجريت كاندل بإجراء بحث بعنوان: "الصفات الغالبة لجينات المصريين".

استمرت في بحثها لمدة خمس سنوات من عام 1944 إلى عام 1999، ثم خلصت في النهاية، وبعد هذا المجهود الضخم، إلى أن تعلن:

"أثبتت دراساتي عدم نقاء العنصر الألماني "الجنس الآري".. كما أكدت استحالة التطابق الجيني لليهود.. ولكن النتيجة التي لم أكن أتوقعها أبدًا!!!.. هذا التطابق الجيني الذى تزيد نسبته على ٩٧٪ من عينات المصريين التي أخذتها من جميع أنحاء مصر.. قراها.. مدنها.. عيادات أطبائها.. تماثلت جدائل الجينوم من العينات وشرائح البحث من المسلمين والمسيحيين بشكل أرى أنه لم يحدث فى أي من الدراسات التي تحت أيدينا الآن".

ويقول فلاندرز بترى:

"مصر لم تكن مقبرة للغزاة بالمعنى السياسي فحسب.. بل المعنى البيولوجي أيضًا.. كانت كل الغزوات تذوب فى جسم مصر الكبير.. حتى الفتح العربي.. لم يكن تغييرًا فى مصرية مصر.. بقدر ما كان تغييرًا في الحكام فقط".

ويقول ستامب:

"المشكلة فى الاستيلاء على مصر ليس في غزوها.. بل فى الوصول إليها.. فنادرًا ما تجد شعبًا متماثلاً في ملامحه الجسمية، والنفسية، بل في مزاجه وتقاليده مثل الشعب المصري".

وفي كتابه "أعراق أوروبا" يقول العالم ستيفين كون _عالم الأنثروبولوجيا الطبيعية_:

"لا بد أن تظل مصر القديمة أبرز مثال معروف في التاريخ وحتى الآن لمنطقة معزولة طبيعيًا أتيح فيها لأنواع الجنسية المحلية الأصيلة أن تمضي في طريقها لعدة آلاف من السنين دون أن تتأثر إطلاقًا باتصالات أجنبية".

والعالم والباحث الأثري برودريك في كتابه "شجرة التاريخ البشري" يقول: "من الواضح طوال الستة آلاف سنة الأخيرة أو يزيد أنه لم يكن هناك أي تغيير ملحوظ فى مظهر عموم المصريين، فالبراريون وأهل حضارة نقادة الأولى والثانية ومصريو الأسرات والفلاحون الذين نراهم يعملون في الحقول اليوم كلهم من نفس النمط القاعدي المتوسط".

وعالم الأنثروبولوجي وخبير علم التشريح أرثر كيث، فى كتابه "نظرية جديدة عن التطور البشري" يقول: "إن الفلاحين الذين نراهم يؤلفون جسم الأمة اليوم هم النسل المباشر لفلاحي سنة 3300 قبل الميلاد".

ويقول أيضًا:

"المصريون ليسوا فقط أقدم أمة سياسية في التاريخ، ولكنهم أيضًا جنس بكل معنى الكلمة.. ولكن ليس هناك شيء اسمه النقاوة الجنسية عمومًا بل إننا ليمكننا أن نذهب إلى حد القول بأنه ما من شعب، مهما كان منعزلاً أو معزولاً، إلا وهو مختلط بدرجة أو بأخرى.. وإن كان النمط الجنسي المصري قد امتاز بالثبات لا شك".

❋ ❋ ❋

-38-

توقفت شيماء عن الكلام هنيهة، وتناولت كوب ماء ترتشف منه لترطب حلقها الجاف من كثرة الكلام، فتناول صاحب الهاتف هاتفه، فيما يبدو أنه ظن أن شيماء قد انتهت من كلامها فأراد أن يوقف التسجيل.

لكن شيماء أشارت له بيدها، ففهم منها أن للحديث بقية، فعاد بالهاتف إلى الطاولة مرة أخرى، وأردفت شيماء:

- وحين كنت أناقش هذه النتائج مع أحد الأصدقاء المهتمين بالموضوع لفت نظري إلى نقطة مهمة جدًا، وهي أن في ذلك أكبر دليل على انتشار الدم المصري منذ قديم الزمن أيام إدريس عليه السلام، وذاك يترجم أنه بالرغم من اختلاف الأجناس في هذه الأيام إلا أنها تحمل شيئًا من الدماء المصرية ولو بنسبة ضئيلة، وإذا ما حدث تزاوج بين هذه الأجناس المختلفة فإن تلك النسب الضئيلة حين تلتقي وينحدر منها نسل جديد، فإن هذه النسبة تزيد وتقوى في النسل الجديد، ما يؤكد أن المصريين القدماء ليسوا فقط أجداد العرب ولكنهم أيضًا أجداد العالم بأكمله.

وذلك لأن أي جنس دخيل على الجنس المصري حين يتزاوج أو يختلط أو يندمج وسط المصريين، فإنه لا يغير من الصفات الوراثية المصرية، إذ إن نتيجة هذا التزاوج والاختلاط والاندماج ينتج عنه صفات وراثية مصرية أقوى.

ومن هنا سنختم الحديث بهذه النتيجة المثيرة..

أن الصفات الوراثية للمصريين القدماء تنتشر في كل أجناس العالم..

تعال معي لنحللها خطوة خطوة..

أكدنا سابقًا أن النبي يبعث في بني جنسه..

وأن إدريس قد أرسل إلى المصريين خاصة وإلى الناس كلها عامة..

وذلك أكبر دليل على انتشار دماء المصريين أيام النبي إدريس عليه السلام..

لكن الشيق في الأمر أن النبي محمد عليه الصلاة والسلام أرسل للناس كلها عامة..

وبما أن النبي يرسل لنفس جنسه..

فذاك دليل آخر أن كل الناس ينتمون إلى نفس الجنس..

وهو الجنس المصري الذي ينحدر منه النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وينتسب إليه بقوة..

هل تظن بأنني متحيزة أيضًا إلى جانب المصريين، وأنني أقول ذلك من دافع العنصرية لا من دافع الحقيقة؟؟؟

فإليك إذن ما يؤكد هذه الحقيقة..

ففي بحث أ. د. خالد سعد _ المصري الوحيد المتخصص في تاريخ ما قبل التاريخ _، يقول:

"جينات المصريين موجودة فى إنسان نياندرثال، وجدنا جماجمه في أوروبا ووسط آسيا منذ 400 ألف سنة، نعم! ربعمائة ألف سنة - العصر الحجري القديم - والذي هو من 2 مليون سنة حتى 12 ألف سنة ق. م".

ومن الباحثين الأجانب، نشرت المجلة الأمريكية للجينات البشرية بحثًا بعنوان:

" Egyptians In All Of Us .. المصريون فينا جميعًا"

تقدم به علماء من كامبريدج، هم: "مارك جوبلنج، ولوقا باجامى، وتوماس كيفسيلد".

ليخلصوا بعد هذا البحث بأن ثمة صفات وراثية مصرية تسود في جميع الأمم.

-39-

بقامته الطويلة، وبملامحه الجادة الوسيمة دخل يونس على أخته في غرفتها التي صارت معتكفها ومعبدها، ابتسم حتى لمعت عيناه، شعرت براحة تغمرها حين أبصرته أمامها، بالطبع! ولما لا؟

فهو أخوها حبيبها، أقرب وأحن عليها من نفسها، وغير أنه يشبه شخصًا ما.

جلس بجوارها وتناول برفق رأسها، فقبّل مفرق شعرها قبل أن يضمها إلى صدره:

- ماذا تفعل يا قمر؟

- أبدًا، ارتديت ملابسي وفي انتظار هدير، سنخرج لنتنزه قليلًا.

- تمام، هل أرافقك؟

- لا، أنا بخير.

- أخطأتِ فهمي، سأرافقك من أجل هدير لا من أجلك.

ضحكا، لحظات مضت قبل أن يتكلم:

- يوسف كان هنا.

اضطربت، وهرب الدم من أوردتها، وشعرت بتلك الرجفة القبيحة تنال من قلبها.. فهو لا يزال يوسف.. معشوقها.

ضحكة قصيرة بدت من يونس قبل أن يردف:

- جاء منذ ساعة تقريبًا، كان يريد أن يتحدث إليك، عجيب يوسف، لا يملّ من حبك، لو كنت مكانه لما فعلت نصف الذي فعله من أجل أن يرضيك.

- يا سلام.

ضحك بصوت خفيض، وقال:

- طردته من البيت.

دوت كلماته فأصابتها بالصمم:

- طردت مَن؟

- يوسف!

لازال الحب يعترك بداخلها من أجل أن ينتصر ليوسف، تريد لو أن يوسف يختطفها رغمًا عنها لتحافظ على كبرياء عقيم تندم لأنه جزء من شخصيتها، تريد أن تعود إلى حبيبها لكن دون أن تعترف بأنها تريد..

لم يسمع يونس منها ردًا، فأردف:

- لا! وليس هذا فقط، بل أعطيته سيارتي ليصلحها عند الميكانيكي الذي يتعامل معه، أيّ خدمة.

ضحكت بضحكة لم تجاوز شفتيها إلى قلبها، مهما كان فلا زال يوسف حبيبها.

صمتا قليلاً قبل أن يقطع صمتهما صوت موبايل يونس يرن:

- أوف، النقيب زفت.

ثم نظر إلى أخته بهدوء قبل أن يردف:

- رجال المخابرات كعفاريت الخرابات، تجدينهم أمامك في كل مكان.

ضحكا معًا، ثم استقبل يونس المكالمة..

لحظات قبل أن تتغير ملامح يونس بما لا يخفى على عين شيماء، وقف ببطء، احمر وجهه، وزاغت عيناه، أصابها شيء من القلق، لكن القلق سرعان ما تحول لرعب حين دقق يونس بعينيه الذاهلتين في عين شيماء، شعرت بأن مصيبة حاكت خيوطها حول أحد منهما.

ثم سمعت شيماء الكلمات تخرج ثقيلة من فم أخيها، فحاولت أن تستشف من خلالها الحوار الذي يدور بهاتفه.

- سيارتي أنا؟؟

ماذا تقول؟..

قنبلة..

لازالت عينيه في عين أخته، حين لمحت شفتيه قد ارتعشتا:

- انفجرت..

ماااااات؟؟!!!!

انهار يونس بجوارها على السرير:

- ظننتم بأنه أنا لأنه يشبهني؟

❋ ❋ ❋

-40-

قاعة مناقشة رسالة الماجستير..

خلف مكتبهم يجلس ثلاثة أساتذة يتدثرون بالروب الأسود المخصوص لهذه المناسبة، ومن خلفهم لوحة مستطيلة عريضة مكتوب عليها اسم شيماء بالكامل، وموضوع مناقشة الرسالة، وأسماء أعضاء فريق المناقشة..

وشيماء تقف على اليمين خلف طاولة تصل إلى أسفل صدرها، تحمل فوقها نسخة من رسالتها وميكروفون، وقلمًا وأوراقًا قد دونت فيها ملاحظات أعضاء فريق المناقشة حول رسالتها.

القاعة مزدحمة ببعض من طلابها، وبأفراد من عائلتها وأصدقائها، ويدور حول الجميع مصور بكاميرا فيديو قد استأجرته شيماء خصيصًا لتسجيل هذه اللحظة التاريخية من حياتها.

أنهى الأساتذة مناقشتها، ولفت نظرها إلى بعض مواضع بالرسالة، وبعد ساعة مضت، أشار رئيس لجنة المناقشة بيديه إلى الحضور فعمّ الصمت والسكون:

- من فضلكم فليتفضل الجميع بالوقوف.

شعرت شيماء بطعم الفرحة في حلقها، وبرعشتها في أوصالها، وبدموعها تداعب أهدابها، وتعلقت ببصرها وسمعها بشفتي رئيس لجنة المناقشة:

- قررت لجنة مناقشة رسالة الماجستير والتي هي بعنوان "النبي محمد.. مصري"، منح الباحثة شيماء محمد عبد الله محمد درجة الماجستير بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، ويوصي بهذه الرسالة بأن تطبع بالكتب وتدرس

بالمعاهد والجامعات لما فيها من فائدة علمية معتبرة، مع تمنياتنا للباحثة بدوام التقدم والرقي، وشكرًا.

وبمجرد أن أنهى كلمته ضجت القاعة بالصياح والتصفيق، وجلجلت بالآذان صوت زغرودة خرجت من بين الزحام، وأقبل الجميع على شيماء يهنئنها ما بين أحضان وتقبيل وكلمات كثيرة بالتهنئة.

غير أن عين شيماء طفقت تمسح المكان من وراء دموع الفرحة تبحث عنه.

فوجدته بين الصفوف يرتدي بدلة سوداء أنيقة بقميص أبيض ورابطة عنق سوداء، واقفًا، وسيمًا، وقد تهلل وجهه من الفخر، واغرورقت عيناه بالدموع فرحًا من أجل حبيبته.. زوجته، واستطاعت أن تقرأ حركة شفتيه:

- مبارك يا روح قلبي.

غادر الأساتذة القاعة، وتبعهم نفر كثير من الطلبة وخفّ الزحام، هنا توجه إليها يوسف، لكنه لم يأت بمفرده.

فقد كانت يد رقيقة تمسك بيده، باليد الرقيقة الأخرى باقة من الأزهار الجميلة، تأملت شيماء ذاك الكيان الملائكي وهو يتقدم بعرجة بسيطة بقدم كانت تعاني من كسر بعظمة الساق ولم تتم شفاؤها بعد، تأملته بملامحه الجميلة التي تحمل ملامح زوجها، وبدلته السوداء الأنيقة بقميصها الأبيض ورابطة العنق السوداء التي صار فيها نسخة طبق الأصل من أبيه، فابتسمت له شيماء بود.

أقبل عليها يوسف فاحتضنها:

- جعلتِ رأسي في السماء يا ملكة.

- حبيبي يا بطتي.

طال بينهما النظر، ثم انتبهت شيماء إلى وجود آدم بجانب يوسف، نظرت إليه مبتسمة، فابتسم بوجهه الطفولي وهو يمد إليها باقة الزهور، فتناولتها منه شيماء وقبلت يده ثم خده ثم احتضنته:

- شكرًا يا حبيبي.

فلفّ حولها ذراعيه القصيرتين وقبل خدها بقبلة استنفرت بداخلها كل مشاعر الحنان والأمومة المحرومة منها.

* * *

كانت هذه هي الطريقة الوحيدة..

لم يجد يوسف أمامه حلًا آخر سوى حيلة أشار يونس عليه بها..

كانت حيلة ماكرة، وصعب أن يتحملها أي أحد..

لكنهما لم يجدا منها بدًا بعد محاولات الجميع الفاشلة في استمالة شيماء إلى أن تقابل زوجها وتسمع منه فضلًا عن أنها تسامحه وتعود إلى بيتها..

وما أن استقر رأي الاثنين على هذه الحيلة حتى استقر عزم يونس على تنفيذها ليساعد يوسف وأخته شيماء..

* * *

سمعت شيماء الكلمات تخرج ثقيلة من فم أخوها، فحاولت أن تستشف من خلالها الحوار الذي يدور بهاتفه.

- سيارتي أنا؟؟

ماذا تقول؟..

قنبلة..

لازالت عينيه في عين أخته، حين لمحت شفتيه قد ارتعشتا:

- انفجرت..

ماااااات؟؟!!!!

انهار يونس بجوارها على السرير:

- ظننتم بأنه أنا لأنه يشبهني؟

أنهى يونس المكالمة وترك يده تنام بجواره كدمية خشبية، أتقن رسم ملامح الفزع والأسى على وجهه، ولم يكن وجه شيماء بأحسن منه حالًا، بل صرخ الفزع من عينيها، وذهب الهول بعقلها، وطعنت المصيبة قلبها المسكين، فوقفت تحملق في يونس، تستجدي الكلمات لتخرج من فمها فلم تستجب، جف حلقها وتوترت أحبالها الصوتية بألم:

- ما الأمر يا يونس؟

نظر إليها بعين منكسرة قبل أن يبالغ في تأدية دوره في التمثيل ويقوم ناحية الشرفة ويوليها ظهره، فشعرت شيماء بأن تكهنها في محله، وأن مصيبة ألمت بحبيبها وزوجها، هنا مادت الأرض تحت قدميها، وسقطت رغمًا عنها ترتطم بالسرير:

- ماذا حدث يا يونس؟

أتاه صوتها ممزوجًا بعبرات الفزع، كاد أن يغادر ثباته ويلين إلى حالة أخته التي أوشكت على الموت رعبًا، ويكشف لها تلك التمثيلية، لكن شيئًا بداخله لم يأمن رد الفعل عليها، فآثر أن يخفف من وطأة الكارثة التي غُرس

فيها دون أن يقصد، فنظر إليها ليجدها تنتفض وترتعش بجسدها الذي اكتسى بالزرقة:

- تعالِ معي.

لا تدري شيماء كيف استجابت قدماها وطاوعتها على الوقوف، ثم صحبها يونس ونزلا معًا، شعرت شيماء بدوار يصيب رأسها، فتأبطت ذراع أخيها تستند عليه، وما أن وصلا إلى باب الفيلا حتى توقف يونس وأشار لها بالخروج، فنظرت إليه شيماء نظرة مبهمة مستنكرة، طالت وقفتهما وطالت النظرات بينهما، فابتسم يونس برفق يلطف به ندمه على الحالة التي أوصل أخته إليها.

استجابت شيماء تحت وطأة نظرته وفتحت الباب بيد واهنة مرتعشة..

نظرة واحدة خارج الباب، وفقدت شيماء بعدها الوعي وتهاوى جسدها المثلج علي الأرض لولا أن تداركها يونس قبل أن ترتطم بالأرضية.

* * *

عادت إلى الوعي تدريجيًا، وفتحت عينيها بضعف لتجد صورًا مموهة لأجساد تلتف حولها، لحظات مضت عليها وهي تئن من التعب والصداع قبل أن تستوعب أنها ممددة على سريرها، وأن تلك الأجساد هي أمها وأبوها وأخوها و...

يوسف..

لم تكد تقع عيناها عليه حتى تسارع نبض قلبها الذي كاد أن يتفتت خوفًا ولهفة، ودخلت في حالة هيسترية من البكاء والنحيب، فأسرعت أمها

إليها تحضنها وتربت على ظهرها بحنان وتهدئ من روعة جسدها المنتفض نحيبًا.

توتر يوسف، وانقبض قلبه تأنيبًا، شعوره بالذنب كوخز الإبر بمقلة عينه، فأشار إلى يونس بأن يصطحب الجميع خارجًا ليتركه مع زوجته منفردين.

تولى يونس صرف الجميع وترك يوسف مع شيماء، وأغلق الباب عليهما.

على استحياء وحزن جلس يوسف على حرف السرير بجانب شيماء التي تغوص برأسها بين ذراعيها المضمومتين على ركبتيها، مد يده ولمس بأنامله كفها فنهرته وجذبت يديها إلى صدرها، اقترب منها أكثر، فسارعت تغادر سريرها من الناحية الثانية، تبعها يوسف إلى أن استقر خلفها وهي تنظر من الشرفة وتكفكف دموعها، مد إليها يده ليمسك ذراعها فنهرته، فلم يرعوِ لنهرها، وعاود ثانية يمسكها، حاولت أن تفلت من يده فلم يتركها، حاولت أكثر، فجذبها إليه بقوة، وأدار جسدها بيديه وما أن استدارت حتى اعتنقها بدموع غزيرة تسيل من عينيه.

- "كان لازم أموت علشان تسامحيني؟"

سمع صوت بكائها، فأحكم احتضانها ورفعها بين أحضانه من على الأرض:

- "هتسبيني أموت؟"

من وراء دموعها وصوتها المرهق أجابته:

- بَعد الشر.

- هه؟

- بَعد الشرر.

لم يشعر بحلاوة تلك الكلمة، أكثر من السعادة التي انغمس فيها حين شعر بيديها تلتف حول عنقه بقوة كادت أن تخنقه، لكنه خنق تمناه منذ أياااااااام.

* * *

عادت شيماء إلى شقتها، وعادت حياتهما إلى سابق عهدها.. حب وسعادة.. وتوافق..

أخبرها يوسف بأن وجود آدم مؤقت وأنها مسألة وقت قبل أن ترتب كرستينا أوضاعها ومن ثمّ سترسل في طلبه مرة أخرى..

لكن المفاجأة أن شيماء تقبلت آدم، بل تعلقت به، إذ إنها ترى فيه يوسف الصغير، وودت لو تنثني كرستينا عن طلبه، ويعيش معها يعوضها عن الابن الذي لن تنجبه ليوسف.

ومضى وقت غير طويل وتلقّت شيماء عرضًا بمنحها درجة الدكتوراه الفخرية على بحثها من إحدى الجامعات.

تمت

لم أخطط لهذه الرواية بأن تنتهي بهذه النهاية..
لكن فيما يبدو أن الروايات هي التي تختار نهاياتها..

❋ ❋ ❋

المراجع

البحث العلمي بالرواية خلاصة بحث وتنقيب بين مائة وعشرة مراجع، وللاختصار فسوف أستعرض أهم مراجع البحث، وإذا كنت تريد معرفة المزيد من المراجع، فستجد أغلبها في هوامش بعض المراجع التالية:

دكتور مصطفي محمود

كتاب عالم الأسرار.

كتاب الله.

حلقة اللغة التي تكلم بها آدم – برنامج العلم و الإيمان.

دكتور سيد كريم

كتاب لغز الحضارة الفرعونية.

كتاب أخناتون.

دكتور نديم عبد الشافي السيار

كتاب قدماء المصريين أول الموحدين بأجزائه.

الباحث المصري الدكتور وسيم السيسي

حلقات برنامج يارو.

مقالات بجريدة المصري اليوم.

دكتور أحمد سعد الدين

كتاب فرعون ذو الأوتاد.

دكتور رشدي البدراوي

سلسلة قصص الأنبياء والتاريخ.